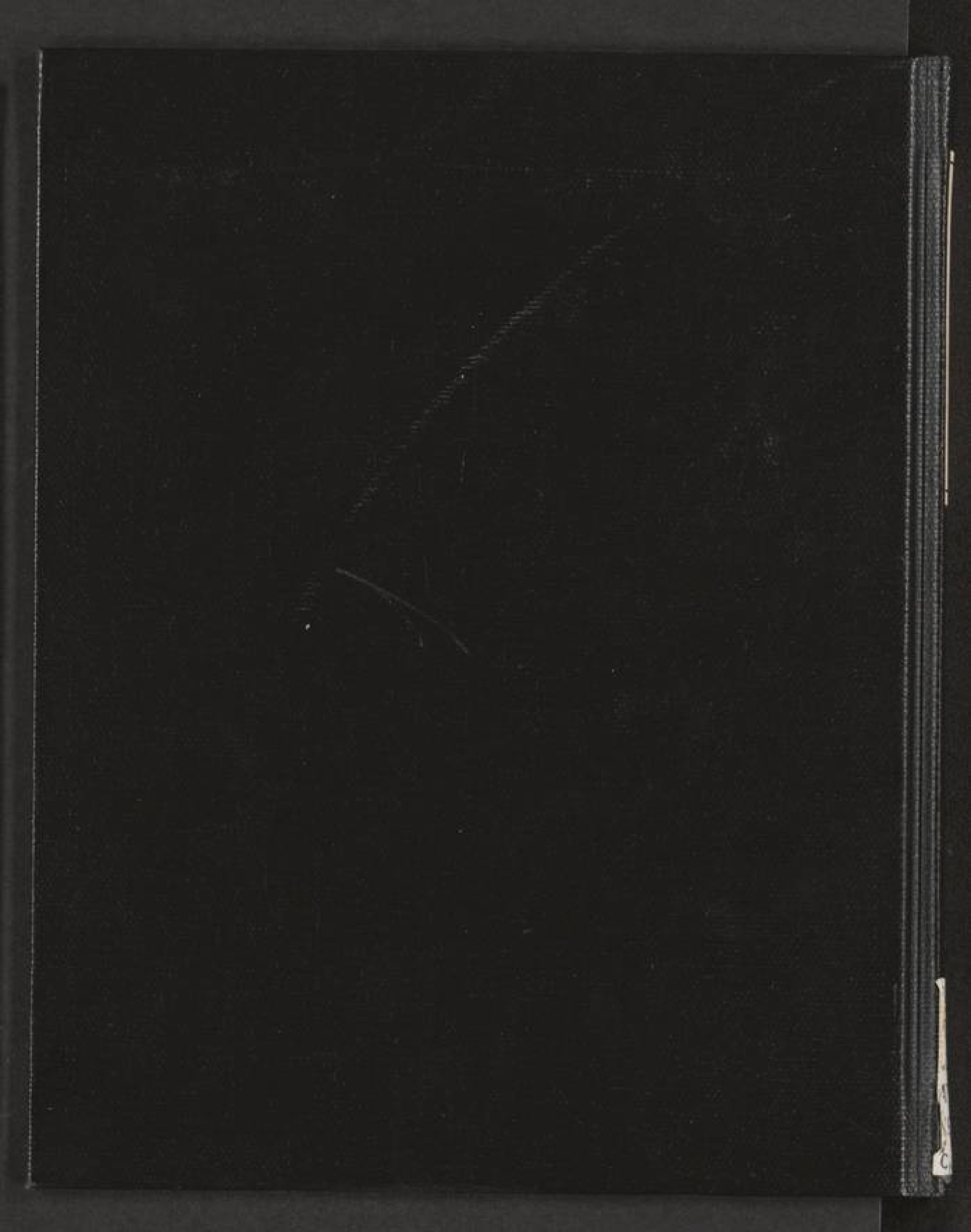



BOBST LIBRARY
3 1142 01727 4401

Saʿādah, Rufūl
/al-ʿAql wa-al-dīn/

العقل والدين

رواية ادبية تاريخية

موضوعها

حياة موسى المشترع الاسرائيلي العظيم وتحرير العبرانيين
من عبودية المصريين وتاسيس المملكة الاسرائيلية
والشريعة الموسوية ومصادرها

مؤلفها
رفول سعاده

في مطبعة المناظر
١٩٠٤

Saʻādah, Rufūl

/al-ʻAql wa-al-dīn/

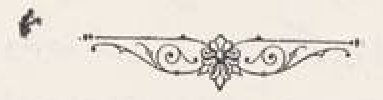
☙ كلمة يهديها المؤلف الى عقلاء القراء ❧

اذا كانت الديانة هي نتيجة ارتقاء العقل ونتيجة احتياجات النفس كما قال بنجامين كونستان وكان العقل هو مرشد الانسان الى الديانة — وفي الديانة دلائل واضحة على صحة هذا نراها جلياً اذا نظرنا الى الجوهر الاصلي وجردنا الدين من الزوائد الكثيرة التي تستر حقائقه — فمن الواجب علينا اذن ان نعتمد على العقل وحده في جميع مباحثنا الدينية وان لا نجعل للعاطفة سلطة علينا ما زالت تحاول ان تهدم ما يبنيه العقل بمعول الخرافات والتقاليد العقيمة

واذا كنا نخجل من النظر الى الحقيقة عاريـة من كل زينة كاذبة لا يسترها سوى وشاحها الابيض النقي فنلبسها من الاوهام والخزعبلات جلابيب و براقع غليظة فعبثاً تسعى الانسانية الى الكمال عبثاً تحاول النهوض والارتقاء وعبثاً تتعب في غرس نبت العلم الصحيح

بيننا ونحن نحجب عنه نور الحقيقة وحرارتها اللذين عليهما يتوقف نموه وبهما يقوى و يزهو

وعليه فانني ارجو القارىء اذا قام النزاع غداً بين عواطفه واهوائه و بين مبادىء هذه الرواية ان يحلّ العقل من القيود التي تربطه و يقيمه حكماً لفصل هذا النزاع لانه خير دليل للانسان في ظلمة الحياة التي تكتنف هذا المجموع باسره وخير مرشد الى الحقيقة الضالة التي يطلبها كل منا



١

مدت ملكة النور اناملها الذهبية ووقّعت على شروط تسليم مملكتها العظمى الى سلطان الليل وتوارت بهودجها الناري وراء حجاب الافق فجاء عسكر الظلام واحتلّ مملكة النهار وحاول ان يلغي مبدأ التنازع عن الارض فاوقف حركة العمل وامر الطيور ان تأوى الى وكناتها والانسان الى مسكنه ثم برز البدر في كبد الفضاء محاطاً بهالةٍ من نور يتفقد شؤون مملكته الجديدة

وكان من جملة الناس الذين عادوا الى اكواخهم شيخ مسنٌ من الطبقة التي قضى عليها استبداد الانسان وظلمه بان تجتاز مفازة هذه الحياة بين الانين والتنهد والدموع واثقال العمل

كان الشيخ يسير مسرعاً في خطاه غير مبالٍ بحر النهار الذي قاساه ولا بمشقة العمل الذي عاناه ودلائل الافتكار بادية على وجهه الذي زاده الشيب هيبة ووقاراً . ولذلك فقد كان هو اول من دخل

المحلة من العملة الذين كانوا برفقته . ولكن ما كان اشد اندهاله عندما دخل كوخه ورأى امرأته جالسة على فراشها تبكي و بجانبها طفل صغير مدرج بالاقمطة

لم يستغرب الشيخ امر وجود الطفل لكنه استغرب بكاء امرأته ولذلك فقد كان اول شيء خاطبها به قوله — لماذا تبكين يا يوكابد ؟

اما المرأة فاجهشت بالبكاء ومدت يدها مشيرة الى الطفل ولم تجب بكلمة البتة

فتقدم الشيخ من سرير الطفل وتفرس في وجهه ثم انحنى فوقه وقبله وقال — لم افهم الى الان معنى بكائك يا عزيزتي فها ملاكنا الصغير نائم الان نوماً هادئاً

فمسحت يوكابد عندئذ دموعها وقالت — ما اتعسنا يا عمرام وما اقبح الوسط الذي نعيش فيه . ألست شاعراً بثقل نير العبودية الذي يرزح تحته الان اسرائيل ؟ هل تسمع حولك غير التنهد والانين والبكاء ؟ هل ترى غير ضعفاء تُسحق واقوياء تستبدُّ ومظلوم يسقط على اقدام الظالم ؟ فمع كل تعاستنا هذه قد سمعت اليوم وتحققت بان فرعون قد شدد امره بقتل اطفالنا وطرحهم في ماء النيل طعاماً للتمساح

— وهل هذا الذي يبكيك ؟

— واي شيء اذن وقد اخذ اليوم من المحلة اكثر من

عشرين طفلاً

— وهل تخشين على طفلنا؟

— كيف لا ورجال فرعون يدخلون البيوت و يفتشونها زاو ية فزاو ية

— لا تخافي يا عزيزتي فان يهوه يرعانا بعين عنايته وسينظر الى مذلة شعبه اسرائيل · قال هذا ونهض واقفاً وهمّ بالخروج

فقالت يوكابد — الى اين تذهب

فقال — الى خارج المحلة لاجمع قشاً لصنع اللبن

— ومتى تعود؟

— ربما بعد ساعتين

وفتح الباب وخرج

٢

لم يكد عمرام يخرج من البيت حتى دفع الباب ثانية ودخل منه رجل خلاسي اللون رقيق الوجه طويل القامة متأبطاً عصاة وعلى راسه سلة · فبغتت يوكابد وتلعثم لسانها عن الكلام وهالها امر الرجل ولم تدرك قصده

اما الرجل فتقدم منها ومد يده نحو سرير الطفل وقال

— بامر مولاي رعمسيس اعطني ولدك ايتها المرأة

فغار الدم الى قلب يوكابد وارتعشت فرائصها وقالت

— ولدي نائم الان يا سيدي

— ايقظيه فان مولاي هكذا امرني بان آخذه واقدمه لاله النيل

— لا لا يا سيدي ··· لا تقل هذا الكلام على مسمع من امتك ··· ارحمني واشفق على هذه التعيسة ··· انزع قلبي قبل ان تنزعه مني ··· اقتلني اذا شئت قبل ان تسلبني اياه ··· ولدي ··· وحيدي الذي لم يعرف من هذه الحياة غير ابتساماتي الوالدية ولا من هذا العالم غير والدته التعيسة ··· اتركه لي يا مولاي ··· استحلفك برأس فرعون و باسم يهوه

فقال الرجل المصري بكل قساوة — اسكتي ايتها التعيسة والا سحقتك بهذه العصا · ثم انقض على الطفل وخطفه

فركعت يوكابد على الارض وسقطت على اقدام ذلك الظالم تقبلها وقالت — يكفيني يا مولاي تعاسة · يكفيني ان ليس لي وطن وان اكون غريبة مستعبدة انا وجميع بني جنسي ···· يكفيني ان لا ارى في هذا المجموع الذي يحيط بي غير الانين والتنهد والدموع والبكاء والاحزان ···· يكفيني كل هذا يا سيدي · ما ذنب هذا الطفل حتى يطلبه فرعون ليقدَّم ضحية لاله النيل ··· باللبن الذي

رضعته استحلفك واسألك ان ترده اليَّ ... آه و يلاه حبيبي ... ولدي ولدي ... رده اليَّ باسم يهوه

ولكن عبثاً كانت يوكابد تحاول ان تخلص ولدها وعبثاً كانت تذرف الدموع على اقدام ذلك البربري ليرده اليها . وآخراً وقعت على الارض بلا حراك . والمصري لفَّ الطفل ووضعه في السلة وخرج ووجهته ضفاف النيل ليلقيه فيه

لكنه بعد ان بعُدَ قليلاً عن المحلة رأى شبحاً يتبعه وهو يعدو عدواً فخاف عاقبة الامر ودخل بين آجام الحلفاء ليختبىء فنظره الشبح قد مال عن الطريق فاسرع في الركض لئلا يفوته وهكذا بعد بضعة دقائق ادركه . فابتدره المصري بالسؤال وقال — حي سيدي الى اين تذهب ؟

فقال الشبح الذي هو شيخنا عمرام — خرجت في اثر لص سرق بيتي في هذه الساعة . وانت الى اين تذهب ؟

فقال المصري وقد ارتجف صوته — ذاهب الى النيل لاصطاد

— ولكن لا اثر للصيادين عليك فاين عدتك وشباكك ؟

فارتبك المصري في الجواب اولاً ثم قال — ها هي في تلك السلة

وكانت السلة موضوعة على بضعة خطوات منه . فذهب الشيخ

ونظر فيها وقال — لا ارى فيها سوى لفافة بيضاء فما فيها ؟ ثم جسها بيده فصرخ الطفل · فقال الشيخ

— ما الذي تحمله معك هنا ؟

فقال المصري — طفل صغير اتيت به لاضحيه لاله النيل

— ومن اين اتيت به ؟

— من محلة العبرانيين

— ومن امرك بهذا ؟

— مولاي رعمسيس الثاني

— انا افتدي هذه الضحية فانظر ماذا تريد مني فداء لها

— لا اقبل فداء

— ولكن ما ذنب هذا المخلوق الصغير وماذا صنع حتى استحق القتل ؟

— لا شيء

— انا اعطيك فداءه شاتين

— لا ارضى

— وازيدك على هذا مثقالين من الفضة

— لا ارضى ايضاً

— قل اذن ماذا تريد فداءه

— لا اريد شيئاً

— اذن اعطني اياه

— لا اعطيه

فصعد الدم الى رأس الشيخ واطرق الى الارض مفكراً . ثم رفع راسه وقال — قل لي ماذا تريد فداءه

فقال المصري لقد قلت لك انني لا أريد فداء فدعني وشاني

فقال الشيخ — هل تريد ان افتديه بنفسي

— كلا

فثارت في راس الشيخ ثورة الغضب وقال - لتفده نفسك اذن ايها الشرير لانك ظالم وموت الظالم خير من موت البريء

قال هـذا وضرب المصري على راسه بالعصا فسقط هذا على الارض . اما هو فحمل الطفل وعاد الى بيته

٣

مرّت على هذه الحادثة عدة ايام دون ان يدري بها احد

وفي ذات يوم صباحاً خرجت ترموتيس ابنة فرعون بحاشيتها لتستحم بماء النيل وفيما هي تعوم بقرب الشاطىء رأت سفطاً موضوعاً

بين الخيزران فامرت جاريتها ان تحمله اليها فجاءتها به وفتحته فاذا به صبي يبكي فرقّ قلبها له وقالت لمربيتها وكانت واقفة بجانبها — ماذا نصنع به ؟

فقالت المربية — هلمَّ نضحيه لاله النيل كما امر سيدي رعمسيس فانه من ابناء العبرانيين

قالت ترموتيس — وما ذنب هذا الطفل حتى نميته هكذا شر ميتة ؟

— لا شيء يا سيدتي الا انه من العبرانيين او بالحري الاجانب الذين اراد سيدي رعمسيس ان يذلهم كما اذلهم من قبل والده ساتي الاول

— وهل لذلك من سبب ؟

— ان السبب الوحيد على ما ارى هو انه بعد ان اغتصب الملوك الرعاة عرش مصر اخذوا يدخلون الاجانب بلادنا افواجاً افواجاً ليكونوا لهم نصراء عند الحاجة على الوطنيين وكان من جملة الذين رحلوا الينا هذا الشعب العبراني الذى نحن على مقربة من محلته وقد جاءنا في ايام ابابي احد ملوك الدولة السادسة عشرة . ثم لما قام الوطنيون وطردوا الملوك الرعاة من مصر لم يطردوا الغرباء ايضاً بل زادوا عليهم الاشور يين الذين اتى بهم توتمس الثالث احد ملوك الدولة الثانية عشرة من بابل في

غزوته الاخيرة لهم في السنة الثالثـة والثلاثين لملكه · ثم لما انقرضت الدولة الثامنة عشرة بموت هوراغ مهب واستقلَّ بالملك رعمسيس الاول جد والدك قامت ضده قيامة الاحزاب العديدة لانه لم يكن من اصل الملوك وارادوا ان يخلعوه فسكَّنَ خاطرهم بتزويج ابنـه ساني الاول بالاميرة تاي حفيدة امنحتيب الثالث ووريثـة العرش المصري من الوطنيين · لكن ساني عندما ارتقى الى العرش طلَّقَ زوجته الاميرة تاي فقامت عليه قيامة الوطنيين واغروا الاجانب على التحزب معهم حتى التزم ان يشرك معه في الملك — والدك — ابنه رعمسيس الثاني من امرأته تاي · وقد كان عندئذٍ صغيراً جداً فسكن بهذا خاطر الوطنيين واخمد الثورة التي كانت تتهدده · لكنـه بعد ذلك ابتدأ يضطهد الاجانب بوجه العموم و يضيق عليهم لئلا يشايعوا الوطنيين فيما بعد و يقوموا ضده بثورة اخرى ثم حذا والدك حذوه واخذ يسخرهم و يستعبدهم و يثقلهم بالاعمال الشاقة ·ومن الجملة امر بقتل الذكور من اطفال العبرانيين واستحيـاء الاناث فقط لكي يتمكن بمدة قصيرة من اضعافهم لانهم اقوى الغرباء الان في مصر واكثرهم عدداً [1]

فقالت ترموتيس — ولكن لا ارى من الصواب ان نعامل هذا

---

(١) هذا الرأي للمؤرخ الابطالي قيصر كنتو انظر تاريخـه العام المجلد الاول صفحة ٣٥١ — ٣٥٢

الشعب معاملة كهذه . لانه من يكفل لنا انه لا يثور علينا اذا ظلمناه هكذا و يتآمر مع الليبيين الذين اذلهم والدي وأتي بهم مؤخراً من بلادهم ومع الساميين والاشور بين وجميع الغرباء اذا كان لا يتآمر مع الوطنيين

فقالت المربية لا ولكن شدة بطش سيدي رعمسيس لا يترك لهم سبيلاً للاغترار بنفوسهم والاقدام على هذا العمل

— انني ارى ان شدة البطش هذه التي يعامل بها ملوكنا واشراف دولتنا الغرباء والطبقة السفلى ايضاً من الشعب الوطني ستحدث تأثيراً سيئاً فيما بعد وسيكون لها عاقبة وخيمة

— ما لنا ولهذا البحث يا سيدتي ولننظر الان في ماذا نصنع بهذا الطفل الصغير

— اريد ان احمله معي الى قصري وأتبناه

— ولكن وجود طفل في قصرك بهذا السن يحمل الناس على التقول في امره وعلى وصم سيدتي بالعار . وربما جرَّ عليك غضب والدك . وعدا عن هذا فان شرائعنا وتقاليدنا الدينية لا تجيز لنا ان نتنجس باولاد الاجانب لاسيما وهذا الطفل ابن رعاة مواش

— ولكن شرائعنا الدينية الحقيقية التي لا يبوح بها الكهنة لاحد تأمرنا بمد ايدينا لمساعدة الضعفاء ونصرة المظلوم ولا تمنعنا من عمل

﴿ العقل والدين ﴾

رواية ادبية تاريخية

موضوعها

حياة موسى المشترع الاسرائيلي العظيم وتحرير العبرانيين
من عبودية المصريين وتاسيس المملكة الاسرائيلية
والشريعة الموسوية ومصادرها

مؤلفها

رفول سعاده

طبعت في مطبعة المناظر
١٩٠٤

﴿ كلمة يهديها المؤلف الى عقلاء القراء ﴾

اذا كانت الديانة هي نتيجة ارتقاء العقل ونتيجة احتياجات النفس كما قال بنجامين كونستان وكان العقل هو مرشد الانسان الى الديانة — وفي الديانة دلائل واضحة على صحة هذا نراها جلياً اذا نظرنا الى الجوهر الاصلي وجردنا الدين من الزوائد الكثيرة التي تستر حقائقه — فمن الواجب علينا اذن ان نعتمد على العقل وحده في جميع مباحثنا الدينية وان لا نجعل للعاطفة سلطة علينا ما زالت تحاول ان تهدم ما يبنيه العقل بمعول الخرافات والتقاليد العقيمة

واذا كنا نخجل من النظر الى الحقيقة عارية من كل زينة كاذبة لا يسترها سوى وشاحها الابيض النقي فنلبسها من الاوهام والخرافات جلابيب و براقع غليظة فعبثاً تسعى الانسانية الى الكمال وعبثاً تحاول النهوض والارتقاء وعبثاً تتعب في غرس نبت العلم الصحيح

بيننا ونحن نحجب عنه نور الحقيقة وحرارتها اللذين عليهما يتوقف نموه و بهما يقوى و يزهو

وعليه فانني ارجو القارىء اذا قام النزاع غداً بين عواطفه واهوائه و بين مبادىء هذه الرواية ان يحلّ العقل من القيود التي تربطه و يقيمه حكماً لفصل هذا النزاع لانه خير دليل للانسان في ظلمة الحياة التي تكتنف هذا المجموع باسره وخير مرشد الى الحقيقة الضالة التي يطلبها كل منا



١

مدت مملكة النور انامله‍ا الذهبية ووقَّعت على شروط تسليم مملكتها العظمى الى سلطان الليل وتوارت بهودجها الناري وراء حجاب الافق فجاء عسكر الظلام واحتلَّ مملكة النهار وحاول ان يلغي مبدأ التنازع عن الارض فاوقف حركة العمل وامر الطيور ان تأوى الى وكناتها والانسان الى مسكنه ثم برز البدر في كبد الفضاء محاطاً بهالةٍ من نور يتفقد شؤون مملكته الجديدة

وكان من جملة الناس الذين عادوا الى اكواخهم شيخ مسنٌّ من الطبقة التي قضى عمايها استبداد الانسان وظلمه بان تجتاز مفازة هذه الحياة بين الانين والتنهد والدموع واثقال العمل

كان الشيخ يسير مسرعاً في خطاه غير مبالٍ بحر النهار الذي قاساه ولا بمشقة العمل الذي عاناه ودلائل الافتكار بادية على وجهه الذي زاده الشيب هيبة ووقاراً . ولذلك فقد كان هو اول من دخل

المحلة من العملة الذين كانوا برفقته . ولكن ما كان اشد انذهاله عندما دخل كوخه ورأى لمرأته جالسة على فراشها تبكي و بجانبها طفل صغير مدرج بالاقمطة

لم يستغرب الشيخ امر وجود الطفل لكنه استغرب بكاء امرأته ولذلك فقد كان اول شيء خاطبها به قوله — لماذا تبكين يا يوكابد ؟

اما المرأة فاجهشت بالبكاء ومدت يدها مشيرة الى الطفل ولم تجب بكلمة البتة

فتقدم الشيخ من سرير الطفل وتفرس في وجهه ثم انحنى فوقه وقبله وقال — لم افهم الى الان معنى بكائك يا عزيزتي فها ملاكنا الصغير نائم الان نوماً هادئاً

فمسحت يوكابد عندئذٍ دموعها وقالت — ما اتعسنا يا عمرام وما اقبح الوسط الذي نعيش فيه . ألست شاعراً بثقل نير العبودية الذي يرزح تحته الان اسرائيل ؟ هل تسمع حولك غير التنهد والانين والبكاء ؟ هل ترى غير ضعفاء تسحق واقوياء تستبدّ ومظلوم يسقط على اقدام الظالم ؟ فمع كل تعاستنا هذه قد سمعت اليوم وتحققت بان فرعون قد شدد امره بقتل اطفالنا وطرحهم في ماء النيل طعاماً للتمساح

— وهل هذا الذي يبكيك ؟

— واي شيء اذن وقد اخذ اليوم من المحلة اكثر من

عشرين طفلاً

— وهل تخشين على طفلنا ؟

— كيف لا ورجال فرعون يدخلون البيوت و يفتشونها زاو ية فزاو ية

— لا تخافي يا عز يزتي فان يهوَه يرعانا بعين عنايته وسينظر الى مذلة شعبه اسرائيل . قال هذا ونهض واقفاً وهمّ بالخروج

فقالت يوكابد — الى اين تذهب

فقال — الى خارج المحلة لاجمع قشاً لصنع اللبن

— ومتى تعود ؟

— ربما بعد ساعتين

وفتح الباب وخرج

٢

لم يكد عمرام يخرج من البيت حتى دفع الباب ثانية ودخل منه رجل خلاسي اللون رقيق الوجه طو يل القامة متأبطاً عصاة وعلى راسه سلة . فبغتت يوكابد وتلعثم لسانها عن الكلام وهالها امر الرجل ولم تدرك قصده

اما الرجل فتقدم منها ومد يده نحو سر ير الطفل وقال

— بامر مولاي رعمسيس اعطني ولدك ايتها المرأة

فغار الدم الى قلب يوكابد وارتعشت فرائصها وقالت

— ولدي نائم الان يا سيدي

— ايقظيه فان مولاي هكذا امرني بان آخذه واقدمه لاله النيل

— لا لا يا سيدي ··· لا تقل هذا الكلام على مسمع من امتك ··· ارحمني واشفق على هذه التعيسة ··· انزع قلبي قبل ان تنزعه مني ··· اقتلني اذا شئت قبل ان تسلبني اياه ··· ولدي ··· وحيدي الذي لم يعرف من هذه الحياة غير ابتساماتي الوالدية ولا من هذا العالم غير والدته التعيسة ··· اتركه لي يا مولاي ··· استحلفك برأس فرعون و باسم يهوه

فقال الرجل المصري بكل قساوة — اسكتي ايتها التعسة والا سحقتك بهذه العصا · ثم انقض على الطفل وخطفه

فركعت يوكابد على الارض وسقطت على اقدام ذلك الظالم تقبلها وقالت — يكفيني يا مولاي تعاسة · يكفيني ان ليس لي وطن وان اكون غريبة مستعبدة انا وجميع بني جنسي ···· يكفيني ان لا ارى في هذا المجموع الذي يحيط بي غير الانين والتنهد والدموع والبكاء والاحزان ···· يكفيني كل هذا يا سيدي · ما ذنب هذا الطفل حتى يطلبه فرعون ليقدَّم ضحية لاله النيل ··· باللبن الذي

رضعته استحلفك واسألك ان ترده اليّ ··· آه و يلاه حبيبي ··· ولدي ولدي ··· رده اليّ باسم يهوه

ولكن عبثاً كانت يوكابد تحاول ان تخلص ولدها وعبثاً كانت تذرف الدموع على اقدام ذلك البربري ليرده اليها · وآخراً وقعت على الارض بلا حراك · والمصري لفّ الطفل ووضعه في السلة وخرج ووجهته ضفاف النيل ليلقيه فيه

لكنه بعد ان بعُدَ قليلاً عن المحلة رأى شبحاً يتبعه وهو يعدو عدواً فخاف عاقبة الامر ودخل بين آجام الحلفاء ليختبيء فنظره الشبح قد مال عن الطريق فاسرع في الركض لئلا يفوته وهكذا بعد بضعة دقائق ادركه · فابتدره المصري بالسؤال وقال — حي سيدي الى اين تذهب ؟

فقال الشبح الذي هو شيخنا عمرام — خرجت في اثر لص سرق بيتي في هذه الساعة · وانت الى اين تذهب ؟

فقال المصري وقد ارتجف صوته — ذاهب الى النيل لاصطاد

— ولكن لا اثر للصيادين عليك فاين عدتك وشباكك ؟

فارتبك المصري في الجواب اولاً ثم قال — ها هي في تلك السلة

وكانت السلة موضوعة على بضعة خطوات منه · فذهب الشيخ

ونظر فيها وقال — لا ارى فيها سوى لفافة بيضاء فما فيها ؟ ثم جسها بيده فصرخ الطفل . فقال الشيخ

— ما الذي تحمله معك هنا ؟

فقال المصري — طفل صغير اتيت به لاضحيه لاله النيل

— ومن اين اتيت به ؟

— من محلة العبرانيين

— ومن امرك بهذا ؟

— مولاي رعمسيس الثاني

— انا افتدي هذه الضحية فانظر ماذا تريد مني فداء لها

— لا اقبل فداء

— ولكن ما ذنب هذا المخلوق الصغير وماذا صنع حتى استحق القتل ؟

— لا شيء

— انا اعطيك فداءه شاتين

— لا ارضى

— واز يدك على هذا مثقالين من الفضة

— لا ارضى ايضاً

— قل اذن ماذا تريد فداءه

— لا اريد شيئاً

— اذن اعطني اياه

— لا اعطيه

فصعد الدم الى رأس الشيخ واطرق الى الارض مفكراً . ثم رفع راسه وقال — قل لي ماذا تريد فداءه

فقال المصري لقد قلت لك انني لا اريد فداءً فدعني وشاني

فقال الشيخ — هل تريد ان افتديه بنفسي

— كلا

فثارت في راس الشيخ ثورة الغضب وقال — لتفده نفسك اذن ايها الشرير لانك ظالم وموت الظالم خير من موت البريء

قال هـذا وضرب المصري على راسه بالعصا فسقط هذا على الارض . اما هو فحمل الطفل وعاد الى بيته



٣

مرّت على هذه الحادثة عدة ايام دون ان يدري بها احد

وفي ذات يوم صباحاً خرجت ترموتيس ابنة فرعون بحاشيتها لتستحم بماء النيل وفيما هي تعوم بقرب الشاطئ رأت سفطاً موضوعاً

بين الخيزران فامرت جاريتها ان تحمله اليها فجاءتها به وفتحته فاذا به صبي يبكي فرقَّ قلبها له وقالت لمربيتها وكانت واقفة بجانبها — ماذا نصنع به ؟

فقالت المربية — هلمَّ نضحيه لاله النيل كما امر سيدي رعمسيس فانه من ابناء العبرانيين

قالت ترموتيس — وما ذنب هذا الطفل حتى نميته هكذا شر ميتة ؟

— لا شيء يا سيدتي الا انه من العبرانيين او بالحري الاجانب الذين اراد سيدي رعمسيس ان يذلهم كما اذلهم من قبل والده ساتي الاول

— وهل لذلك من سبب ؟

— ان السبب الوحيد على ما ارى هو انه بعد ان اغتصب الملوك الرعاة عرش مصر اخذوا يدْخلون الاجانب بلادنا افواجاً افواجاً ليكونوا لهم نصراء عند الحاجة على الوطنيين وكان من جملة الذين رحلوا الينا هذا الشعب العبراني الذى نحن على مقربة من محلته وقد جاءنا في ايام ابابي احد ملوك الدولة السادسة عشرة . ثم لما قام الوطنيون وطردوا الملوك الرعاة من مصر لم يطردوا الغرباء ايضاً بل زادوا عليهم الاشور بين الذين اتى بهم توتمس الثالث احد ملوك الدولة الثانية عشرة من بابل في

غزوته الاخيرة لهم في السنة الثالثة والثلاثين لملكه · ثم لما انقرضت الدولة الثامنة عشرة بموت هوراء مهب واستقلَّ بالملك رعمسيس الاول جد والدك قامت ضده قيامة الاحزاب العديدة لانه لم يكن من اصل الملوك وارادوا ان يخلعوه فسكَّنَ خاطرهم بتزويج ابنه ساني الاول بالاميرة تاي حفيدة امنحتيب الثالث ووريثة العرش المصري من الوطنيين · لكن ساني عندما ارتقى الى العرش طلَّقَ زوجته الاميرة تاي فقامت عليه قيامة الوطنيين واغروا الاجانب على التحزب معهم حتى التزم ان يشرك معه في الملك — والدك — ابنه رعمسيس الثاني من امرأته تاي · وقد كان عندئذٍ صغيرًا جدًا فسكن بهذا خاطر الوطنيين واخمد الثورة التي كانت تتهدده · لكنه بعد ذلك ابتدأ يضطهد الاجانب بوجه العموم و يضيق عليهم لئلا يشايعوا الوطنيين فيما بعد و يقوموا ضده بثورة اخرى ثم حذا والدك حذوه واخذ يسخرهم و يستعبدهم و يثقلهم بالاعمال الشاقة ·ومن الجملة امر بقتل الذكور من اطفال العبرانيين واستحياء الاناث فقط لكي يتمكن بمدة قصيرة من اضعافهم لانهم اقوى الغرباء الان في مصر واكثرهم عددًا [1]

فقالت ترموتيس — ولكن لا ارى من الصواب ان نعامل هذا

(١) هذا الرأي للمؤرخ الايطالي قيصر كنتو انظر تاريخه العام المجلد الاول صفحة ٣٥١ — ٣٥٢

الشعب معاملة كهذه . لانه من يكفل لنا انه لا يثور علينا اذا ظلمناه هكذا و يتآمر مع الليبيين الذين اذلهم والدي وأتي بهم مؤخرًا من بلادهم ومع الساميين والاشور بين وجميع الغرباء اذا كان لا يتآمر مع الوطنيين

فقالت المربية لا ولكن شدة بطش سيدي رعمسيس لا يترك لهم سبيلاً للاغترار بنفوسهم والاقدام على هذا العمل

— انني ارى ان شدة البطش هذه التي يعامل بها ملوكنا واشراف دولتنا الغرباء والطبقة السفلى ايضاً من الشعب الوطني ستحدث تأثيرًا سيئًا فيما بعد وسيكون لها عاقبة وخيمة

— ما لنا ولهذا البحث يا سيدتي ولننظر الان في ماذا نصنع بهذا الطفل الصغير

— اريد ان احمله معي الى قصري وأتبناه

— ولكن وجود طفل في قصرك بهذا السن يحمل الناس على التقول في امره وعلى وصم سيدتي بالعار . وربما جرّ عليك غضب والدك . وعدا عن هذا فان شرائعنا وتقاليدنا الدينية لا تجيز لنا ان نتنجس باولاد الاجانب لاسيما وهذا الطفل ابن رعاة مواش

— ولكن شرائعنا الدينية الحقيقية التي لا يبوح بها الكهنة لاحد تأمرنا بمد ايدينا لمساعدة الضعفاء ونصرة المظلوم ولا تمنعنا من عمل

واذ كانت ترموتيس تحادث مربيتها بهـذا الكلام كان صراخ الطفل يزداد مرة عن اخرى . فتركتا حديثهما واهتمتا به . فقالت ترموتيس للمربية — ماذا بدا لك في امر هذا الطفل ؟

فقالت المربية — ارى الاوفق يا سيدتي ان تسلميه الى مرضع عبرانية لتربيه ومتى كبر تحمله اليك

— اذن آتيني بواحدة منهنّ

وكان هناك على مقربة منهنّ فتاة تسمع وترى ما يجري فتقدمت اليهنّ وقالت — هل تريد سيدتي ان ادعو لها مرضعاً ؟

فقالت ترموتيس — اذهبي

فذهبت الفتاة ودعت امها فجاءت فامرتها ابنة فرعون ان تأخذه وترضعه فتناولتـه بين ذراعيها وجلست على الحضيض وضمتـه الى صدرها وقبلته ومسحت وجهـه ودموعه بطرف ثوبها ثم اعطتـه ثديها ليرضع

وكانت ترموتيس تنظر الى هذا باسمة فقالت — هل تعرفين لمن هذا الطفل ؟

فاغرورقت عينا المرأة بالدموع ونظرت اليها ولم تستطع ان تحر جواباً . فادركت ترموتيس انه ولدها وقالت

— مسكينة . هل هو ولدك ؟

فاحنت المرأة رأسها وضمت الطفل وقبلته وقالت بصوت خنقته العبرة — نعم يا سيدتي هو ولدي . واذ ذاك انهملت الدموع من عينيها

فقالت ترموتيس — ولماذا وضعته هنا ؟

فقالت المرأة — هكذا شاء مولاي فرعون ان يأخذ الفرخ من عشه وان ينزع من صدور الامهات قلوبهن . فقد ارسل منذ ايام عامله فاخذه مني اذ كنت وحدي في البيت ثم لما جاء زوجي واخبرته لحق به واسترده اليَّ فنمي الخبر الى مولاي فرعون وارسل الى شيخ محلتنا يطلب الطفل منه . نخوفاً من غضب سيدي فيما لو وجد الطفل عندنا اخذت هذا السفط وطليته بالحمَّر والقار ووضعته فيه واعطيته الى اخته مريم هذه لتضعه هنا وتقف من بعيد تنظر ما يحلُّ به

فقالت ترموتيس — حيٌّ هو ولدك ايتها المسكينة فليطمئن قلبك الان . خذيه الى بيتك وربيه ومتى كبر احمليه اليَّ

وعندما سمعت يوكابد هذا الكلام وقعت على اقدام ترموتيس فقبلتهما وشكرتها على احسانها ثم حملت ولدها وعادت الى بيتها

اما الاميرة فان جواريها رفعن فوق راسها مظلة كبيرة من الكتان الابيض النقي المطرز بالذهب وعادت الى قصرها

٤

وكانت ترموتيس الابنة الوحيدة لرعمسيس الثاني بين الجمع الغفير من اولاده الذكور [1] . ولذلك كان حبه لها عظيماً جداً وكان يهوى حديثها وكلامها لعذوبته وجرأتها وذكائها . فلما دخلت الى القصر هشَّ لها وبشَّ وقال — اين كانت اميرة مصر ؟

فقالت ترموتيس — ذهبت كعادتي لاستحمَّ بماء النيل

— وما الذي اخرك حتى هذه الساعة ؟

— اخرَّني رؤية مشهد اليم يا أبتِ

فاضطرب رعمسيس وقال — مشهد اليم ! وما هو هذا المشهد ؟

— هو طفل عبراني وجدته موضوعاً بين آجام الحلفاء على ضفة النيل يمد يده الصغيرة الضعيفة الى الانسانية باكياً وليس من يسمع تنهده

— لا بأس يا ابنتي انني قد امرت بتقديم اطفال هذا الشعب العبراني ضحايا لاله النيل حسبما اشار عليَّ رئيس الاحبار وكبير انبياء وحكماء مصر

---

(١) لقد وجد مكتوباً على جدار احد الهيا كل في مصر ان قد كان له مائة واحد عشر ولداً

لا لا يا أبت لا تقل هكذا · ان الطفل الذي رأيته هو مخلوق صغير لا ذنب له وقد أثر فيَّ بكاؤه وبكاء والدته ولهفتها عليه عندما رأته اكثر مما أثرت فيَّ رؤية الاله الاكبر في هيكل ساتي جالساً على عرشه الذهبي يتدفق النور من وجهه على باقي الآلهة الصغيرة التي تحت اقدامه · ولذلك فقد وهبتها اياه لتربيه حتى يكبر ثم ترده اليَّ

— ولماذا صنعت هكذا يا ولدي · غداً يدري بك رئيس الكهنة و يستنزل عليك غضب الآلهة

— كلا يا ابت ان الاله « خَنْشُو » لما وَجد « ايس » الجميل تائهاً في مجاهل الصحراء ورده الى امه التي كانت تندبه وتفتش عنه في اعالي النيل عظمه جداً « راع » ابوه القديم الازلي الاله الاكبر وجعله شريكاً له ومتحداً معه في كل شيء [1] ولذلك فلا اظن ان رئيس الكهنة يغضبه مني صنع رحمة كهذه

— اذا كان ما صنعت لا يغضب رئيس الكهنة فلا باس من ادخاله الى قصورنا وتربيته عندنا كما تشائين

(١) ان سر التثليث كان معروفاً عند المصريين الاقدمين · فكان عندهم راع كناية عن الاب ومُوت زوجه وخنشو ابنه (تاريخ سوريا للعلامة الدبس صفحة ٣٦٤ مجلد اول) · اما ايس فهو العجل الذهبي الذي كانوا يعبدونه · ومن خرافاتهم ان امه اضاعته ووجده خنشو فرده اليها فجزاه راع بان جعله مساوياً له في كل شيء (كنتو المجلد الاول من تاريخه)

— سانظر في هذا الامر واطلع رئيس الكهنة على هذا

٥

في ذات يوم من احدى سني القرن الرابع عشر قبل الميلاد المسيحي كان الناس يشاهدون على الطريق القويم الواسع الممتد من ضفاف النيل حتى مدخل باب السور الكبير المحيط بهيكل ساتي في طيبة »[1] مركبة فاخرة يجرها جواد من الخيل الشامية وفي المركبة فتاة لم يكن احد يجهل انها اميرة مصر وابنة سيدها فرعون و بجانبها غلام غير متجاوز الثانية عشرة من العمر

• كانت المركبة تسير سيراً حثيثاً مخترقة صفوف الجماهير التي كانت تقف الى جانبي الطريق لتحيي الاميرة · ولذلك فلم تلبث ان وقفت في الفسحة الكبرى التي امام مدخل الهيكل الخارجي حيث ترجلت واخذت الغلام بيدها ودخلت · لكنها لم تصل الى مدخل الهيكل

(١) ان الفقرات الموضوعة بين هاتين العلامتين «   » في هذا الفصل منقولة بحروفها عن الجزء الثامن من المجلد الثالث عن الجامعة عن مقالة لها تحت عنوان « اثار الشرق القديمة » وقد لخصتها عن كتاب للمستشرق الالماني جورج ايبرس

الخارجي حيث « مرّت في فناء واسع يحيط به من جهاته الاربع صفان متوازيان من الاعمدة الضخمة » حتى لاقاها جماعة من الكهنة وساروا يحفون بها من كل جانب الى غرفة رئيس الاحبار وكبير الانبياء

وكانت « هذه الغرفة من احسن غرف الهيكل واعظمهنّ اتساعاً مزينة بالصور والنقوش البديعة ولكن ليس فيها من الاثاث والمتاع سوى مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع عليه متكأ من سن الفيل مصنوع على شكل هلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراس عديدة وخزانة فيها اوانٍ من معدن واخرى فيها اوانٍ من فخار وقوارير من زجاج وغير ذلك من العلب المختلفة الاشكال والاقدار وكثير من محارّ البحر يضيء هذا كله ثلاثة مصابيح مملوءة بزيت الخروع تشبه الطيور في صورتها »

وعندما دخلت ترموتيس الى هذه القاعة رأت رئيس الكهنة مضطجعاً على سريره « وعليه لباس من الكتان الابيض الناصع كثير الثنايات سابلاً الى كاحل القدم فوقه وشاح ذو اهداب مسترسلة يحيط بخاصرتيه معقود من الامام في نقطة ينسدل منها طرفاه الى ما يوازي الركبتين وتتماسك اجزاء هذا الثوب الكهنوتي بحمائل من المقصب . وبعنقه عقد من اللؤلؤ والاحجار الكريمة على شكل قضيبين من سعف النخل متقاطعين من اسفل . وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز »

اما رئيس الكهنـة فلما رأى الاميرة نهض واقفاً ولاقاهـا الى منتصف القاعة مرحباً بها ثم دعاها للجلوس فجلست وجلس الغلام بجانبها ايضاً . و بعد مبادلة السلام التفت الرئيس اليها باسماً وقال — أهذا هو الغلام الذي اخبرتني عنه مرةً ؟

فقالت ترموتيس — نعم يا سيدي

— وما اسمه ؟

— لقد سميته موسى لانني انتشلته من الماء

— ان هذا الولد عبراني وابن رعاة مواشٍ فهـل تطهر حسب شرائعنا وتقاليدنا ؟

— نعم يا سيدي لقد صنعت كما امرتني فحلقت شعره عندمـا ادخلته بيتي وغسلته سبع مرات بماء النيل الذي قدم ضحية لاجاه

— وهل يحفظ اسرار شرائعنا المقدسة وتعاليمنا اذا اطلعناه عليها ؟

— لا اظن انه يتجرأ على الاباحة باسرار الحكمة التي سيتلقنها من فم كبير انبياء مصر وعظيم كهنتها . ولكن ارجو من سيدي ان يقول لي لماذا لا يريد الكهنة ان يطلع الناس على كتبهم واسرارهم ؟

— ذلك لان هذه الكتب والاسرار هي عبارة عن كنوز الحقيقة

— وما يضر لو اطلع الناس على الحقيقة

— ان ذلك يشوش نظام حالتنا الحاليـة الاجتماعيـة و يفك الشعب من قيود السلطة التي تخضعه لنا — لملوك مصر وكهنتها وحكمائها وعظمائها وتحمله على الثورة على طبقات الامـة العاليـة والمطالبـة بحقوقه المهضومة

— واذا كان الامر هكـذا فهل يأمن سيدي من ان يقوم فرد و يبيح بها للناس ؟

— لا ارى ان نشر الحقيقة بين طبقات الشعب بواسطة فرد يبوح بها بالامر السهل لانه اذا لم يثر الشعب كله ضد ذلك الفرد لانه يريد ان يغير و ينقض تقاليده فهو لا يقبل التعاليم الجديدة التي يقولها له لاسيما شعب كشعبنا حجبت عنه الحقيقـة بين جبال واسوار شامخـة منيعة من التقاليد والخرافات العقيمة التي توافق ذوقـه وتنطبق على ارادته وشهواته بحيث اذا نهض اليوم لينقض هذه الجبال الشامخة وهذه الاسوار لم يتمكن من اتمام عمله والوصول الى الحقيقة الا بعد مضي قرون

— ولكن ربما الضغط على طبقات الامـة السفلى يولد فيها قوة وروحاً جديدة فتنهض للانتقام منا

— لا يجب ان نخشى من هذا الامر ما زالت التقاليد والاثقال التي نخزمها ونضعها على عاتق الشعب تنطبق على اهوائـه وافكاره

واخلاقه

— اذن يرى كبير حكماء مصر وعظيم كهنتها وانبيائها ان لا خطر على الحالة الاجتماعية الحاضرة

— على ما ارى لا خطر على حالتنا الحاضرة في الوقت القريب لان تيقظ رعمسيس وشدة بطشه و كثرة جنوده وانصاره تكفل له دوام الحالة على ما هي عليه الان لكنني اخشى من ان يقوم بعده خلف ضعيف وتتقهقر المملكة في ايامه بسبب خطر كبير يظهر لي انه يتهددنا في المستقبل

— وما هو هذا الخطر ؟

— هو تآمر الساميين الذين بقوا في مصر بعد طرد الملوك الرعاة والاشوريين الذين اتى بهم توتمس الثالث من بابل والعبرانيين الذين رحلوا الينا في ايام ايابي احد ملوك الدولة السادسة عشرة والليبيين والحثيين الذين اتى بهم والدك في محاربته لهم جميعاً لاسيما ووجود هذه الشعوب والقبائل في مصر السفلى واستقلالها عنا في لغاتها وتقاليدها وعوائدها وآدابها واعتقاداتها مما يسهل لها الخروج عن طاعتنا وخلع نير سلطتنا

— لقد تجلى لي هذا الفكر منذ ابتدأت ان اسمع بتمرد بعض افراد هذه الشعوب على عمالنا ولكن ألا يرى كبير حكماء مصر

امرًا يمكننا ان نتلافى به هذا الحادث قبل وقوعه ؟

— ان ضم هذه العناصر المختلفة الى بعضها البعض ومزجها بالامة المصرية بحيث يصير الجميع امة واحدة لغة ودينًا وتقاليد وآدابًا وعوائد هو خير امر يمكننا ان نتلافى به زوبعة ثورة عظيمة تتهددنا في المستقبل لو كان هذا الامر ميسورًا لنا ولولا ان عاقبته شرّ علينا من الثورة ٠ اقول غير ميسور لان هذه الامم الشرقية شديدة المحافظة على تقاليدها وعوائدها بحيث يستحيل ضمها الى بعضها البعض فكيف ضمها الى الامة المصرية ٠ واقول ان نتيجة هذا الاصلاح شر علينا من الثورة لاسباب اهمها :(١) ان هذه الشعوب يمنعها من الاختلاط بنا عدم مخالطتنا نحن لها وتزيينا لحضرة الشعب الوطني انها نجسة وان تقاليدها وطقوسها رجس عندنا ٠ فاذا هدمنا هذا السور لنضم هذه الخراف الى حظيرة واحدة ولم يعد يفصل عامتنا شيء عنهم نخشى ان يتآمر الكل علينا عندئذٍ اذ تنفتح اعين الجميع وتتجلي بعض الحقائق لهم فيخلعون عنهم نير سلطتنا وتسقط الحالة الاجتماعية الحاضرة ٠ (٢) لو تيسر لنا ضم هؤلاء الى الامة المصرية فلا نستطيع ان نضمهم الا الى طبقة العامة فقط ٠ وفي هذا من الخطر على عروش مصر والطبقات العالية ما فيه لانه من يستطيع عندئذٍ ان يقف امام ذلك البحر الزاخر او ان يصادم ذلك الاسد الهائل اذا نهض للطالبة بحق له ٠ (٢) ان بضم هاته الشعوب

الغريبة الى الامة المصرية ضربة قاضية على الاستعباد وهو بمثابة تحرير لجميع سكان مصر على الاطلاق على اختلاف اجناسهم وطبقاتهم وفي هذا ايضاً ما فيه من الخطر على فن الصناعة الجميل القائم على اعناق الاسرى والارقاء الذين نستعبدهم ونسخرهم لانه لولا ذلك لم نستطع ان نعمل ما عملنا ولا ان نتقدم في هذا الفن غير جزء من الف فقط · وعليه فانني ارى من الصواب عدم التعرض لنقض امر ما البتة واتمنى ان يكون لرعمسيس خاف شديد الباس مثله ليستطيع ضبط الحالة الاجتماعية الحاضرة والا فاقل حجر صغير يسقط من هذه الردم التي اسسنا عليها عروش مصر تسقط معه العظمة الحالية ولا يبقى سوى اطلال يقف غداً بجانبها خلفاؤنا وقفة المنذهل المتأسف» .

وعندما انتهى رئيس الكهنة من كلامه انحنت ترموتيس امامه وقالت — عظيمة هي الحكمة التي سمعتها من فم حكيم الحكماء فانها تنير الذهن وتحل في القلب كما ينيرنا الاله « راع » ببهاء وجهه الناري وكما تحل اشعته الذهبية على اكمام الزهور وتفتحها

واذ ذاك وقفت لتودعه وتذهب · فسر الرئيس من ثنائها وقال — متى شاءت اميرة مصر فلترسل اليَّ الغلام فانني مستعد بكل سرور ان القنه علوم المصريين واطلعه على جميع اسرار الحكمة التي اؤتمنت عليها

ثم قام لوداعها ورافقها الى باب القاعة حيث خرجت من هناك الى باب السور تحف بها الكهنة وركبت مركبتها وعادت الى قصرها

وبعد انقضاء ايام على هذه الزيارة أُرسل موسى الى المدرسة ليتلقن علوم المصريين

٦

« وكانت المدارس في ذلك الزمان مقرونة بالهياكل كما يقرنها المعاصرون الان بالاديار والكنائس والجوامع » « وكان الطلاب يتلقنون فيها علوم الدين والطب والحقوق والرياضيات والهندسة والفلك والصنائع وغيرها من العلوم على اساتذة تضلعوا في هذه الفنون · ولم يكن يقبل من هؤلاء الطلاب الا ابناء الوطن الاحرار بلا فارق بين الغني والفقير على شرط ان يدفع اهلهم او اولياء امورهم مبلغاً محدوداً من المال مقابل الغذاء الذي كانوا يتناولونه اذا كانوا داخليين · اما ابناء الاكابر والاعيان منهم فكانوا يقيمون في مكان خصوصي بهم حيث يكونون تحت مراقبة الكهنة [1]

(١) الجامعة الجزء الثامن من المجلد الثالث من مقالة لها عنوانها « اثار الشرق القديمة »

اما العلوم الدينية عند المصريين فقد كانت من اسمى ما يتلقنه الطالب لانها كانت توءهل صاحبها الى الانتظام في السلك الكهنوتي او بالحري الوصول الى اشرف واسمى طبقات الامة · ولذلك فقد كان اولاد الاشراف والاغنياء فقط هم الذين يتمتعون بهذه العلوم بخلاف اولاد الفقراء وعامة الشعب الذين لم تكن تسمح لهم التقاليد بذلك فكانوا ينقطعون الى درس الهندسة و باقي علوم الرياضيات والصنائع و بالاجمال الفنون التي كانت تعود عليهم بالنفع المادي فيما بعد

اما موسى فلاختصاصه بابنة فرعون سمح له رئيس الكهنة بان يتلقن العلوم الدينية التي كانت ترموتيس ترغب في ان يتعلمها لغاية في نفسها هي ترقيته الى رئاسة الكهنة واستخصالها بواسطته على قلب الحالة الاجتماعية في مصر وفك الشعب من القيود التي كانت توثقه وتخضعه لطبقة الاشراف والاغنياء والاستعاضة عن الظلم والاستبداد اللذين قام عليهما التمدن المصري بالاخاء والعدل هاتين الفضيلتين اللتين لولاهما لكانت الناس في هذا المجموع عبارة عن حيوانات مفترسة يبتلع اقواها اضعفها و ينازع بعضها البعض البقاء — ولذلك فقد كانت كثيرة الاهتمام بموسى و بزيارة الهيكل مرة في الاسبوع على الاقل

ولقد دخل موسى الى المدرسة وفي نفسه كثير من الفضائل

السامية التي تنمو عفواً في قلوب الشرقيين فصرف بضعة اعوام في تلقن مبادىء القراءة والكتابة واسرار اللغة المصرية ثم انقطع بعد ذلك الى الاخذ عن رئيس الكهنة ذاته . فكان يذهب اليه في الصباح و يعود الى بيت فرعون في المساء

اما الرئيس فقد كان كثير الاعجاب بذكائه وملاحظاته وتعمقه في المسائل ولذلك كان يشرح له كل شيء بتدقيق و يطلعه كل يوم على جديد من اسرار الكهنة وعلم التاريخ الذي كان يقرنه اقدماء بالدين و ينسبون جميع الحوادث العظيمة فيه الى الالهة . ولكن موسى لم يكن يؤثر في نفسه الكبيرة المنصرفة الى الحقيقة ما كان يحيق بها في طريقها هذه من الخرافات والاوهام وقلما كان يهتم من شروح استاذه الا بالذي له علاقة بما في نفسه فقط

ولقد لاحظ استاذه الرئيس منه هذا فاراد ان يقيد نفسه التي لم تستطع سلطة تعاليمه الخرافية ان تقبض عليها بسلطة الكهنوت ولذلك قال له يوماً : لقد صرت يا موسى اهلاً لان تلبس الثوب الكهنوتي وتدخل الى قدس الاقداس في هيكل امون حيث ترى الاله الاكبر بمجده و بهائه جالساً على عرشه الذهبي ينعكس النور من وجهه على الالهة الصغرى التي حوله وتصير بعد ذلك كواحد منا

فابتسم موسى من كلام استاذه وقال - وهل العقل السامي

يا سيدي يسكن في الهياكل او يحصره الادراك ؟

فانذهل الرئيس من هذا الجواب وقال — ان نفسك الكبيرة يا ولدي تطمح الى ما هو سامٍ ولا تقدر الحلقة التي رسمناها للشعب حتى وابعض الكهنة انفسهم ان تحصرها ولكن يجب ان تبكر اليَّ غداً في الصباح وعندئذٍ اطلعك واوضح لك الشيء الذي يصوره لك فكرك وتطمح اليه نفسك

ولما كان الغد جاء موسى في الصباح كما امره استاذه الرئيس فقال له خذ هذا الثوب الكتاني الابيض والبسه واتبعني الى الهيكل وعندما تدخل قف هناك امام المذبح صامتاً حتى ادعوك اليَّ ٠ فأخذ موسى الحلة الكهنوتية وصنع كما امره الرئيس

وفيما هو واقف امام المذبح سمع صوتاً يناديه «موسى !موسى !» ٠ فتقدم موسى الى الامام ورفع طرف الحجاب الذي كان يستر القسم الداخلي ، او قدس الاقداس عن اعين الزوار ودخل واذا هو برئيس الكهنة ساقط على وجهه الى الارض امام عرش من خشب السنط مغشًى بالذهب وفوق العرش تمثال كبير ينبعث النور من وجهه و ينعكس على التماثيل الصغيرة التي حوله ، وتحت اقدامه هذه العبارة باحرف من نور ايضاً « انا هو اله الالهة القديم الازلي الذي كان و يكون وسيكون الذي لم يكشف بعد احد الغطاء الذي يسترني» ٠ فانذهل موسى اولاً من هذا

المنظر الخرافي الجميل ثم لم يلبث ان ادرك السر وعرف ان رأس التمثال مصنوع من الزجاج الملون وهو فارغ من الداخل ومثقوب من المؤخر الذي كان موضوعاً لجهة الشرق تماماً بحيث اذا بزغت الشمس مدّت حبالها من كوة في اعلى الجدار الى داخل الراس والى تلك الاحرف المصنوعة من البلور ايضاً فتسطع تلك الانوار و يتجلى للناظر ذلك المشهد البهي .

و بينما موسى يتأمل في ذلك المنظر وفي دقة الصناعة التي اودعت في ذلك العرش وفي التماثيل التي فوقه نهض الرئيس واقفاً وقال بصوت عال « انت هو في الحقيقة اله الالهة القديم الازلي الكائن والذي كان وسيكون الذي لم يعرف احد بعد كنهه الى الان » وعندئذٍ اشار الى موسى بالخروج ورفع طرف الحجاب وخرجا سوية

وكان موسى يسير بعد رؤية ذلك المشهد صامتاً والرئيس يقرأ على صفحات وجهه شيئاً مما في نفسه فلما وصلا الى الغرفة صعد الرئيس الى سريره وقال لموسى — هلمَّ واسمع الان

فاسرع موسى وجاء بكرسي وجلس بازاء استاذه وقال — ليتكلم حكيم مصر وكبير كهنتها فكلي آذان صاغية له

فقال الرئيس — وهل تحفظ في اعماق قلبك الاسرار التي سأتمنك عليها ؟

— بلا شك يا سيدي لانه فضلاً عن ان الحكمة لا يدركها الا الحكماء فانها كالجواهر اذا عرضت على من لا يعرف قيمتها احتقرها وسخر بها

— اذن فاسمع يا ولدي . ما هذا ؟! سوءال القاه العقل على هذه الطبيعة الصامتة عندما رأى كل شيء فيها يسير بنظام وعلى ناموس خاص . سوءال لم يكد يدور في خلد الانسان حتى اعترته هزة ورعشة خفيفة واخذ ينظر بدهشة في ما حوله عله يرى مصدر وفاعل العجائب الطبيعية التي كانت تتجلى امامه . واذ لم يجد شيئاً اخذ يفكر في هذا السر العظيم فكانت نتيجة افتكاره هذه : رأى ان كل حركة يأتيها هو ذاته صادرة عن العقل فاستنتج ان لا بد لحوادث الكائنات حتى ابسطها من عقل مدبر ايضاً . ثم رأى ان الاشجار تغذيه بثمارها وتظلله باغصانها فظن انها مصدر حياته وحياة باقي الكائنات فاكرمها . ثم رأى ان لا حياة له وللاشجار الا بالماء فظن ان الانهار العظمى هي ذاتها مصدر الحياة فاكرمها . ثم رأى ان الثمر والماء لا يوءثران في باقي الكائنات تأثيرهما فيه ورأى ان نفع الحرارة والنور اعم والزم للحياة فاكرم الكوكب العظيم (اي الشمس) الذي هو مصدرهما . ثم رأى ان النار اقرب مثال لهذا الكوكب لانها تصدر النور والحرارة ايضاً فعبدها واكرمها ولذلك فالناس الان يعبدون الاشجار والانهار والشمس

والنار و يكرّمون كل ما ينتسب اليها او ما له علاقة بها و يبنون لها الهياكل الفخيمة والمعابد الشائقة و ينحتون لها التماثيل الهائلة والجميلة . ثم لما رأى بعض الحكماء ان كل هذه المعبودات التي يكرمها الناس قاصرة جدًا عما ينسبون اليها قالوا انها ليست آلهة بل مظهر لقوة اعظم وعقل اسمى لا يدرك ولا يحصره فكر فعبدوا هذا العقل ودعوه الاله الاكبر خالق السماء والارض وما فيهما ونسبوا اليه كل ما هو سامٍ وعظيم . وهكذا ارتقت الديانة بحسب ارتقاء العقل و بمقتضى احتياجات النفس

ولكن يا ولدي ان الذي اخبرتك بـه الان ليس شائعًا كباقي معتقداتنا الاخرى بل هو كناية عن السر العظيم الذي يكنه في الاعماق حكماء مصر وعظماء كهنتها . ولذلك اوصيتك واوصيك ايضاً الا تقوله لاحد . لان معرفة عامة الناس به يحرر العقل من سلطة العاطفة التي تقوده وتقود هذا المجموع بامره الى حفظ التقاليد والسنن والخطط التي نرسمها له والتي يحفظها حفظ الهيأة الحاضرة و بقاؤها على حالها و بابقاء هذه الحالة ابقاء وحفظ كرامة وعظمة كهنة مصر وتمتعهم بالخيرات والنعم الموقوفة لهم من الشعب بفضل هذه التقاليد التي تنطبق على اهوائهم واذواقهم

وعندما وصل الرئيس الى هذا الحد ابتسم موسى وقال — وهل

يجيز لنا العقل الذي هو كل شريعة وحكمــة ونظام ان نغش الناس ونثقل عليهم ؟

فقال الرئيس — كلا يا ولدي ان العقل لا يسمح لنا بهذا ولكن ما العمل ؟ اننا اذا اردنا ان نحرر الناس من سلطة الخرافات والاوهام ونطلعهم على الحقيقة كي يستنيروا بنورها و يصبحوا مساوين لبعضهم البعض وانا في كل شيء لا يلبث ان يقوم بعد هذا الانقلاب اناس غيرنا و يفسدون الحقائق التي نسلمها للهيأة و يستميلون الناس اليهم و يصورون لهم صحة بعض المبادىء السافلة و يحملونهم على التشبث بها والانقسام بسببهــا · ثم بين تيارات هذه التشعبات يقيمون لهم عروشاً شامخة و يسترون الحقيقة وراء حجب الخرافات و يقسمون الناس الى طبقات و يعيدون للهيأة الفساد ثانيةً · ولذلك نخيث من المحال الوصول الى الاصلاح الحقيقي وكل محاولة من هذا القبيل الان هي عبارة عن تشويش فقط فالاحسن ابقاء كل شيء على حالته الحاضرة.

فابتسم موسى ثانيةً وقال — وماذا تفيدنا الحقيقة اذن اذا كنا نعرفها ولا نقولها للناس · أليس الافضل ان نكون جهلة ونستطيع ان نفيد الاخرين من ان نكون حكماء ولا نستطيع هذا بل بالعكس نجلب لهم الضرر

فاطرق رئيس الكهنة عندئذٍ مفكراً ثم رفع رأسه وقال — اذا

كان كتم الحقيقة يأتي بالضرر فان نشرها بين طبقات الامة يشوش نظامنا الحالي ويدك التمدن المصري · ومع ذلك فهو ليس بالامر السهل

فقال موسى — ربما كان اظهار الحقيقة ضارًا من الجهة التي ينظر اليها سيدي ولكن اذا تمعنا جيدًا رأينا ان لها طرقًا عديدة سليمة

فصعد الدم الى راس رئيس الكهنة وقال بنزق

— وما هي هذه الطريق ؟ هل تريد ان تقول للناس انزعوا من بينكم آلهتكم المتعددة ؟ هل تريد ان تقول لهم ان كل ما تعتقدون هو باطل وخرافات واوهام ؟ ام ماذا تريد ان تقول لهم ؟

فابتسم موسى وقال — لا لا لا يغضب سيدي · لا يجب ان نقول لهم هذا مباشرة بل يجب ان نعلمهم ما يجعلهم ان يعرفوا من تلقاء ذواتهم ان ما ذكره سيدي فاسد وباطل · وذلك ان نبث فيهم المبادىء السامية وان نطلعهم على شيء من اسرارنا وعلى الاقل ان نعلمهم عن صورة الدفاع عن النفس في محكمة اوزيريس من كتاب الموتى[1] ان القتل والسرقة والزنى والشهادة بالزور واغتياب القريب

(1) في اول القرن التاسع عشر بينما كانت اللجنة العلمية الفرنسوية تنقب في اثار طيبة باذن من نابوليون الاول عثرت في المقبرة الملكية على كتاب جليل

القدر تحت عنوان « كتاب الموتى » فنقلته الى اوروبا وترجم هناك وطبع في سنة ١٨٠٥ . وهذا الكتاب يتضمن كثيراً من الشرائع الدينية المصرية والاسرار والمعتقدات التي لم يكن يحق الا للكهنة والحكماء الاطلاع عليها فقط

اما صورة الدفاع عن النفس امام الالهة في محكمة اوزيريس (اله الالهة) فهي كتابة عن الفصل ١٢٥ من هذا السفر ننقلها هنا للقارىء كما رواها المؤرخ الايطالي قيصر كنتو في كتابه التاريخ العام المجلد الاول صفحة ٢٨٦ الى ٢٨٧ وهي هذه :

« احييكم يا سادة الحق والعدل . احييك ايها الاله الاكبر سيد الحق والعدل والسماء والارض . اتيت اليك يا سيدي حضرت امام عينيك كي ارى باحترام وجهك لانه عجيب ومعروف اسمك واسماء الاثني والاربعين اله الجالسين معك حول عرشك في قاعة الحق والعدل الثار بين دماء الخطأة في اليوم الذي تزان فيه الكلمات امام اوزيريس الاعظم . ايها الروح المضاعف سيد الحق والعدل هكذا هو اسمك وهكذا انا اعرفك كما انني اعرفكم ايضاً سادتي قضاة الحق والعدل ولذلك اتيت لانكم الصدق ولانزع عني الكذب . انني لم اقترف جرماً ضد بشر ولا اخفت الارملة . لم اكذب امام القضاة ولا عرفت الكذب ابداً ولا صنعت ما هو محرم . لم اجبر عاملاً ليعمل اكثر مما في طاقته . لم اكن غافلاً عن واجباتي ولا كنت بطالاً . لم ازور ولا عملت ما تكرهه الالهة . لم اعذب رفيقاً ولا اجعته ولا ابكيته . لم اقتل . لم اسرق . لم اشهد بالزور على احد . لم ارسل احداً من قبلي ليقتل او يسرق . لم اظلم احداً . لم اطرد الاباء من الهياكل ولا اكلت افراس ذبائح الالهة . لم اسرق اكفان الموتى ولا نزعت الستائر التي تستر اجسادهم في مضاجعها الابدية . لم اغش احداً ولا ربحت منه اكثر مما هو محلل . لم اغش كيل الحبوب ولا غششت الاوزان ولا

والعدل هو خير ما يتبادلونه و يعاملون به بعضهم البعض

ولم يكد موسى ينتهي الى هذا الحد حتى صاح به رئيس الكهنة وقال بغضب — ان هذا الامر لا يوافقنا البتة واسرارنا لا نبيح بها لاحد واذا كنت سمحت لك ان تدخل هيا كلنا وتتعلم عندنا عوائدنا وتقاليدنا وحكمتنا واسرار دياناتنا وانت مع هذا اجنبي فانني منذ هذه الساعة لا اسمح لك بعد بتعاطي وظيفة الكهنوت لانك تريد ان تتخذ سلاحنا لتقاتلنا بـه · قم الان وانصرف عنا فليس لك عندنـا

كفتي الميزان · لم اخطف الحليب من فم الرضيع · لم اقتنص الحيوانات المقدسة من اشجارك ولا قبضت على العصافير الطاهرة ولا اصطدت الاسماك من بحيراتك · لم اطفئ النار المقدسة التي توقد امامك ولا نجست الخبز المقدس الذي يرفع على مذابحك · لم اقطع مجرى ماء على الطريق · لم اهمل الالهة عند الحاجة · انني طاهر · انني طاهر · انني طاهر »

« يا آلهة الحق والعدل الجالسين حول عرش اوزيريس الاعظم الذين لم يعرفوا الكذب بل يعيشون من الصدق ومنه يغذون قلوبهم امام الاله الاكبر الجالس بعظمته على عرشه خاصوني من « تيفون » (اله الجحيم) لانني لم اخطئ ولم اكذب ولم اصنع شرًا ولا ذنبًا ولم اشهد بالزور ولكني عشت من الحق وصنعت العدل · فرّحت الناس · اعطيت خبزًا للجياع وماء للعطاش وثيابًا للعراة وزوارق للغرقى لانقذهم من الموت · قدمت ذبائح ومحرقات كثيرة للالهة · اكرمت والديّ ولم اهنهم البتة ولذلك ارجوكم سادتي قضاة الحق والعدل الا تتكلموا ضدي امام اله الاموات لان فمي طاهر و يديّ طاهرتان ايضًا »

نصيب بعد

فسكت موسى ولم يعد يرد جوابًا وقام ونزع الثوب الكهنوتي الذي كان عليه وانصرف الى بيت فرعون

٧

وبعد ان خرج موسى من الهيكل كتمت ترموتيس امره عن ابيها لئلا يصنع به شرًا وعينته ناظرًا على بعض اعمال الحكومة · فسرَّ موسى بافلاته من معيشة الفخفخة والكسل بين الطبقات العالية في قصور مصر وهيا كلها وخروجه الى الطبقات السفلى حيث يمكنه ان يعيش معيشتهم البسيطة التي تنقضي بين مرارة العمل وحلاوة احلام الامل · واخذ منذ ذلك الحين يتردد على شعبه وعشيرته ويشاهد مذلتهم واحزانهم واتعابهم وكان العبرانيون كثيرًا ما يشكون اليه امرهم ويتذمرون من استبداد المصريين وثقل نير عبوديتهم

ولقد اراد موسى ان يشفع في شعبه امام مربيته ترموتيس ويطلعها على حالهم فدخل عليها يومًا ما وعلى وجهه علائم الكدر والحزن فقالت له — ما الذي يحزنك يا موسى ؟

فقال موسى — يحزنني ياسيدتي شقاء شعبي ومذلتهم التي اراها

بعيني اينما سرت

فقالت ترموتيس وقد ارادت ان تمتحن رقة عواطفه — وماذا يهمنا شقاء الاخرين اذا كنا نحن سعداء ؟

فقال موسى — لا الومك يا سيدتي اذا انت لم تهتمي بشقاء الاخرين لانك لست الوحيدة بين افراد الطبقات العليا التي لا يهمها شقاء عامة الشعب . ولكن هذه العاطفة الشريفة هذا السر العظيم — الحب والتعاضد — الذي يشعر به افراد الطبقة السفلى نحو بعضهم البعض ولا يدرك حقيقته جيداً سواهم والذي هو عبارة عن يد لطيفة تضم جمهم الضعيف ورباط قوي يربطهم هو ما يجعلني ان احزن لحزن اخوتي وان افرح لفرحهم . واذا كان كلٌ منا يا سيدتي يقول — ماذا يهمنا شقاء الاخرين اذا كنا نحن سعداء — فما الفائدة اذن من الاجتماع ومن الحياة المشتركة في هذه الهيأة ؟ أليست حالتنا اذ ذاك — اعني بدون الحب والتعاضد — اشبه بحالة الذئاب التي تجتمع وتربض للفريسة . فاذا ظفرت بحمل ينفرد منها واحد او اثنان ليملاء جوفيهما والبقيـة تبيت ليلتها جائعة

فقالت ترموتيس — ولماذا لا تشعر الطبقات العليا بهذه العاطفة الشريفة التي يشعر بها الفقراء وعامة الناس نحو بعضهم البعض يا ترى ؟

فقال موسى — لان المصائب والاحزان والتعاسة التي تظلـل

اكواخ هؤلاء تشغلهم عن الافتكار في الرذيلة وتحملهم على مساعدة بعضهم البعض هذه المساعدة التي يشعرون كل دقيقة بانهم بحاجة اليها بخلاف اللذات والافراح التي تملأ قصور الطبقات العليا فتشغلهم عن تعاسة الاخرين وعن رؤية الحيـاة الحقيقيـة ولذة الوجود ولذلك يا سيدتي فالفضائل التي تنمو في تربة المعيشة البسيطـة في اكواخ الفقراء والمساكين قلما تنمو في تربة معيشة الترف والفخفخة التي تعيشها الطبقات العليا

فقالت ترموتيس — لقد قلت ان المعيشة التي تعيشها الطبقات العليا تشغلهم عن رؤية الحياة الحقيقية ولذة الوجود فهل توجد حياة اخرى احسن من حياتهم ولذة تفوق اللذات التي يتمتعون بها ؟

فقال موسى — نعم يا سيدتي ان حياة العامـل النشيط التي تنقضي بين مرارة العمل وحلاوة احلام الامل هي ذاتها لذة الوجود واحسن حياة يتمتع بها الانسان والا فالانسان الذي لا يعرف ما هو الشقاء ولا ما هي التعاسة بل يعيش معيشة الطبقات العليا فهو في الحقيقة ليس بانسان بل خيال يعبر هذه الحياة ولا يحيا

فقالت ترموتيس — اذا كان الامر هكذا فلماذا تطلب مني ان انظر الى مذلة شعبك وشقائهم ألا ترضيهم حياتهم الحالية التي تقول عن مثلها انها سعيدة ؟

فابتسم موسى ابتسامة مرة وقال — ومن اين يا سيدتي لشعبي حلاوة احلام الامل التي تحلي مرارة حياتهم وتجعلها ان تكون كالحياة التي وصفتها

فابتسمت ترموتيس عندئذٍ وقالت — وماذا تريد ان اصنع لك الان يا موسى ؟

فقال موسى — اريد ان تمدي يدك اللطيفـة وتعضدي هذا الشعب البائس الذي يقضي على آبائه ان يحنوا ظهورهم لاثقال العمل وعلى ابنائه ليطرحوا في النيل طعاماً للتمساح

فقالت ترموتيس — واي شيء تطلبـه مني · افصح لي عن ارادتك ؟

فقال — اريد ان تساعديني انطاب من سيدي فرعون اذنـاً بالخروج الى البرية لنتم بعض طقوسنا وتقاليدنا

فقالت — وهل غايتكم اتمام الطقوس والتقاليد فقط ؟

فقال — اننا ننوي الهرب ايضاً

فقالت — اياك يا موسى من ارتكاب هذا الغلط لانك تعرض نفسك ونفوس شعبك لغضب والدي لانكم الى حيثما ذهبتم فجنودنا رابضة لكم على الحدود · وعدا هذا فجميع الشعوب المجاورة لنا والتي ستذهبون اليها لا تفضل حبكم على حب فرعون بل تقبض عليكم وتسلمكم لدولتنا

اذ ان مصالحها تدعوها الان الى هذا

فقال موسى — وماذا نصنع اذن يا سيدتي ؟

فقالت — ارى ان نترك الان السعي في هذا الامر لان والدي يترقب منك اقل حركة تبلغه لكي يلقي القبض عليك

فقال — ولماذا يا سيدتي ؟

فقالت — لان رئيس الكهنة بعد خروجك من الهيكل اخبره بجميع سيرتك وافكارك

فاطرق موسى الى الارض مفكرًا و بدت على وجهه علائم الحزن والكدر · فرق قلب ترموتيس على الشعب الاسرائيلي الذي كان موسى يشفع فيه لديها والتفتت الى موسى عندئذٍ وقالت

— هل تسمع نصيحتي يا موسى ؟

فقال — نعم يا سيدتي فبماذا تشيرين عليَّ ؟

— اشير عليك بالخروج من مصر

— وما اصنع اذا خرجت والى اين اذهب ؟

— يجب ان تخرج لتمهد طريقًا لخروجكم و بقعةً تحتلونها فيما بعد

— واذا اتممت هذا العمل فماذا اصنع بعدئذٍ ؟

— البث حيث تكون وانتظر اخباري وما اشير به عليك وكن مستعدًا لتعود عندما ادعوك

فابتسم موسى ابتسامة الرجاء وتناول يد ترموتيس وقبلها وقال
— سأذهب منذ هذه الساعة واستعد للخروج
ثم قام وودع ترموتيس وخرج



٨

وخرج موسى من لدن ترموتيس وسار في جهة محلة العبرانيين وفيما هو يسير في الطريق التقى بغتةً بصديق له يدعى جاثر من ابناء امراء سوريا الذين اتى بهم رعمسيس الثاني في غزوته لها في السنة الرابعة لملكه ليكونوا عنده رهينة الامانة كغيرهم من ابناء الملوك الذين كان يأتي بهم الفراعنة من كل مملكة يتغلبون عليها ليقرّوا لهم بالسؤدد ويفوهم الجزية ويتجدوهم برجالهم حين الحاجة . فقال له جاثر وقد اراد ان يمزح معه

— انني اراك كثير التأمل يا موسى فهل تفكر في دخول الهيكل مرة ثانية ؟

فابتسم موسى وقال — ما لي وللهيكل يا جاثر لقد تركته لاولئك الكسالى الذين يأكلون اتعاب المساكين ويمتصون دماءهم متنعمين بالنذور التي يقدمها لهم الشعب الذي اعموه بخرافاتهم

— وفي ماذا تفكر اذن ؟

— افكر في الامر الذي حدثتك به منذ مدة

— وعلى ماذا عولت الان

— لقد عولت على الخروج من مصر

— وهل تذهب وحدك ام تاخذ معك شعبك ؟

— اذهب وحدي اولاً لاعد الطريق والمكان

— والى اين تذهب ؟

— اذهب الى سوريا · فما رأيك ؟

— ارى الاوفق ان تذهب الى بلاد العرب

— ولماذا ؟ اليست سوريا انسب

— كلا · ان سوريا لا تناسب ان تقود اليها شعبك البتة · لانه فضلاً عن ان شعوبها تحاربكم ولا تقدرون عليهم لكثرتهم فان القسم الجنوبي منها (الذي لا بد لكم من ان تمروا فيـــه) حتى حدود لبنون (لبنان) خاضع للدولة المصرية الان · والقسم الشمالي وجميع الشعوب الشرقية الاخرى حتى الفرات التي تحالفت مع الدولة الحثيـــة اتقف بازاء النفوذ المصري قد ابرمت آخراً بعد سقوط قادش وعقد الصلح معاهدة هجوم ودفاع [1] مع الدولة المصرية وكان من موادها « ان كل

(١) هذه المعاهدة امر بنقشها كتسار ملك الحثيين على صفيحة من فضة بعد

منتقل من احدى المملكتين الى الاخرى او كل صاحب صناعة او عامل او مستعبد يهرب من بلاد الواحدة الى الاخرى يجب على حكومة البلاد التي هرب اليها ان ترده وتسلمه الى حكومة بلاده الاولى عندما تطلبه » ولذلك ارى ان ارتحالكم الى سوريا غير مناسب

فقال موسى — واذا كان الامر هكذا فما هي افضلية بلاد العرب اذن . ألا يستطيع فرعون ان يتبعنا بجيوشه اليها ؟

فقال جاثر — ان افضلية بلاد العرب هي انها لا تزال الجارة الوحيدة التي لم تخضع بعد لسلطة الفراعنة بسبب مركزها الطبيعي . واذا كانت قلة الماء في تلك الصحارى تمنعه من القاء عسكره في المخاطر لاخضاع القبائل العديدة التي تسكنها كما روى لي احد اركان حربه فهذا السبب ذاته ايضاً سيكون مانعاً له عن الالحاق بكم متى تجاوزتم حدود مصر *

— واذا كان قلة الماء هي ما يخشى منه فرعون افلا يجب ان نخشى نحن اذن على نفوسنا منه ؟

سقوط قادش عاصمة مملكته وعقد الصلح مع المصريين وارسلها الى رعمسيس الثاني في السنة الحادية والعشرين لملكه وهي لا تزال منقوشة على جدار هيكل الكرنك حيث اثبتتها الاثار المصرية هناك (انظر صورتها في تاريخ سوريا للعلامة الدبس مجلد ١ صفحة ١٨٢ — ١٨٥ وفي التاريخ العام لكنتو مجلد ١ صفحة ٣٥٥)

فقال جاثر — كلا . ان بلاد العرب لا تخلو من آبار وعيون كثيرة متفرقة في تلك السهول الواسعة ولكن لا يتيسر لجيش كبير معرفة مواقعها لاول وهلة لاسيما وحركاته الحربية لا تسمح له بالعبور في جميع الاماكن التي يريدها . ولذلك يجب ان تذهب اولاً بنفسك الى هناك وتختبر حالة الارض جيداً وتطلع على اماكن الماء والعشب وتعرف المسافات بين المكان الواحد والاخر وترسم لكل ذلك خارطة مفصلة تقود بموجبها شعبك اذا شئت اخراجه من ارض مصر وتيسر لك ذلك

فقال موسى — واذا كانت بلاد العرب قاحلة بهذا المقدار فما فائدة ارتحالنا اليها . أليس الافضل بقاؤنا هنا في مصر وان يكن تحت نير العبودية ؟

فقال جاثر — اذا ارتحلتم اليها فلا يجب ان تتخذوها لكم مسكناً بل حصناً يرد هجمات جيوش فرعون عنكم وطريقاً لا يتبعكم فيه عدوكم . تمرون فيه الى حدود القسم الجنوبي الشرقي من سوريا حيث تتمكنون بعدئذٍ متى قويتم من اجتياز هذه الحدود والدخول الى سوريا ذاتها

فقال موسى — ان رايك حسن وسأفكر فيه منذ الان وربما سافرت في هذه الليلة

فقال جاثر — اذن الى الملتقى ثم تقدم من موسى فتعانقا وقبلا

بعضهما البعض وانفصلا

٩

وبعد ان افترق موسى عن صديقه جاثر اخذ يفكر في رأيه وعول على السفر الى بلاد العرب · وهكذا اعدّ ما يلزمه وسافر في عشية ذلك اليوم

وفيما هو يسير في اليوم التالي عند العصر في ارض مدين وهي قسم من بلاد العرب واقعة على شرقي البحر الاحمر فرغت قربته من الماء واحسَّ بالعطش فعرج عن الطريق الى وادٍ بالقرب منه عله يلاقي هناك ماء · فوجد قطيعاً من الغنم يرعى في تلك المنحدرات والى ظل صخر كبير بجانب الوادي جاس فتيات ينشدن اناشيدهنَّ البدوية ويضربن على قيثارة · فتقدم موسى منهنَّ وحياهنَّ وقال — هل لاحدى سيداتي ان تنعشني بجرعة ماء ؟

فقالت احداهنَّ وهي التي كانت تدق على القيثارة — دونك والبئر يا سيدي فهي بالقرب منا في اسفل هذا الوادي

فقال موسى — انني غريب يا سيدتي وعابر طريق فلا اعلم اين البئر ولا معي دلو لاملأ به قربتي

فقالت الفتاة — انك يا سيدي متى انحدرت قليلاً في هذا الوادي تظهر لك البئر عن بعيد وتجد هناك رعاة يسقون مواشيهم فتستقي انت وتملأ قربتك . اما نحن فليس عندنا هنا ماء البتة لان قربنا فرغت منذ الظهر والان لا نستطيع ان نذهب الى البئر لان الرعاة يطردوننا

فقال موسى — واي ساعة تردن الماء اذن ؟

— بعد غروب الشمس

— ألا تخشين مهاجمة الذئاب بعد تلك الساعة ؟

— كيف لا يا سيدي والذئب يسطو على ماشيتنا في كل ليلة

ففكر موسى بعلاقته العصبية بالمدنيين (١) وشعر من نفسه بعامل خفي يدفعه الى التقرّب من اولئك الفتيات فقال — اذا كان الامر هكذا يا سيدتي وكان تأخركنّ عن وِرْد الماء خوفاً من الرعاة فانني اتكفل لكنّ بسقاء مواشيكنّ في هذه الساعة لان الماء مباح للجميع وليس لاحد حق الاستئثار به دون الاخر

فقالت الفتاة — حبذا لو صنع معنا سيدي هذا الجميل

(١) ان اصل هؤلاء المدنيين من مدين بن ابرهيم من قطورة زوجته التي اتخذها بعد موت سارة . وبهذا قال كثير من المؤرخين ومنهم ابن الاثير في الكامل

فقال موسى — اذن اجمعن القطيع وهلمَّ ورائي

فقامت الفتيات وجمعن غنمهنَّ وسرن وراءه · اما هو فسبقهنَّ الى البئر ونقدم الى الرعاة وطلب منهم بلطافة ان يسمحوا له بسقاء القطيع فاجابوه الى طلبه وملأوا له الاجران · فتقدمت البنات وسقين غنمهنَّ ثم شكرنه على جميله وودعنه وانصرفن وقد تركنه جالساً على البئر مع الرعاة

وعندما وصلن الى المحلة خرج ابوهنَّ للقائهنَّ فاخبرنه بما صنع الرجل معهنَّ فوبخهنَّ على عدم استحضاره معهنَّ للمبيت عنده تلك الليلة · ثم خرج بنفسه الى البئر والحَّ عليه بالذهاب معه فذهب

و بعد ان اقام موسى هناك اياماً مال الى المعيشة البدوية والبقاء هناك في تلك الارض فتزوج احدى اولئك الفتيات واقام يرعى غنم ابيها وقد رأى ان ذلك احسن واسطة لدرس الطريق والمكان الذي يجب ان يقود فيه شعبه فيما بعد اذا اخرجه من مصر · وهكذا كان يذهب الى البرية في الصباح و يعود الى بيت حميه رعوئيل في المساء فيجلس و يباحثه بكثير من التقاليد والشرائع الدينية التي كان لها هوىً في نفسه وكان عمه يميل اليها ايضاً لانه كان كاهناً على ارض مدين

١٠

في ذات يوم بعد ان تعشى موسى خرج مع حميه الى دكة صغيرة امام البيت فجلسا عليها . وكانت الليلة مقمرة والبدر يسبح في الفضاء الواسع و يرسل اشعته الفضية على ذلك المكان فاخذ موسى ورعوئيل يتأملان في ذلك الكوكب الجميل دون ان يخاطبا بعضهما البعض بشيء . و بعد سكوت قليل التفت موسى الى حميه وقال — كم من الناس يا عماه تحجب عنهم الحقيقة بسبب هذه العجائب والعظائم التي اودعها المبدع في الطبيعة فيضلون و يتخذونها لهم الهة مكان الخالق والاله الحقيقي

فقال رعوئيل — ليس الذنب في هذا يا ولدي على البسطاء والعامة بل على الكهنة والحكماء وقادة الافكار في الهيأة الذين يعرفون الحقيقة و يكتمونها عن الناس مزينين لهم وجوب التشبث بكل قديم والرجوع اليه وعدم الشذوذ عنه لكي يبقى العقل قاصرًا ضعيفًا اعمى عن رؤية الدائرة الضيقة التي يرسمونها له لغاية في نفوسهم

فقال موسى — وهل ترى يا عماه ان لهم غاية اخرى غير حفظهم لنفوسهم المركز السامي الذي يشغلونه في الهيأة حاليًا اذ بسقوط هذه التقاليد سقوطهم

فقال رعوئيل — كلا يا ولدي ليس لهم غايـة اخرى غير هذه على ما ارى

فقال موسى — ولكن يا عماه لا بد لهذه المراكز والعروش الجالسين عليها من السقوط يوم يرى الناس نور الحقيقة و يستعيضون عن هذه التقاليد بالفضائل السامية التي بها حياة هذا المجموع وسعادة الطبقات المضغوط عليها

فقال رعوئيل — ولكن اذا كانت الفضائل تنقي النفوس من ادران الشر والفساد فان هذه التقاليد يحتاج اليها المجموع لربط افراده بعضهم البعض وايجاد العلائق بينهم

فقال موسى — كلا يا عماه ان بقاء هذه التقاليد الحاليـة مع الفضائل السامية يخنقها كما يخنق الشوك والعوسج الزهرة اللطيفة اذا التفَّ حولها · لاسيما وتقاليد الامم الحالية التي هي عبارة عن شعائرها الدينية خالية من كل فضيلة وحكاياتهم الدينيـة التي يقدسونها هي عبارة عن تاريخ وليس فيها اثرٌ لتلك الروح اللطيفة « اعني الفضيلة » التي تعطي النفس غذاء صالحـاً وتكبح جماحها الى الشرور والمفاسد · ولقد درست هذه القصص والحكايات كلها على اعظم كهنة مصر ورئيس حكمائها فلم اجد لها من فائدة البتة غير القاء الرعب في قلوب البسطاء وعامة الشعب وتأبيد سلطة الكهنة المطلقة فقط

فقال رعوئيل — وما هي هذه الحكايات التي درستها ؟

فقال موسى — هي تاريخ المصريين والاشوريين الديني عن ابداع هذا الكون واصل الخليقة وقدم العالم

— وهل في هذه القصص ما ينطبق على رواياتنا وتقاليدنا نحن ابناء ابرهيم في قدم الخليقة وابداع العالم ؟

— على ما ارى يا عماه ان الجوهر واحد واذا كنت ترغب في الاطلاع على ملخص اقوالهم في هذا الشأن فانني احكيها لك لتقابل بينها و بين تقاليدنا

— لا بأس يا ولدي فان الحر لا يزال شديداً ولا نستطيع الاستلقاء على الفراش الان

— اذن اسمع يا عماه . « ان المصريين يعتقدون ان (نو) [1] اله الالهة خلق في الازل نفسه من نفسه . و بعد ان اوجد ذاته امر الشمس بارادتــه الذاتيــة ان تظهر فظهرت وظهر معها جميع الاجرام السماوية واضاء هذا الكون بعد ان كان مظلماً ثم لما رأى نو ان كل ما عمله جميل اراد ان يتمم عمــله المقدس فقسم المياه الى قسمين

(١) كان لنو عند المصريين اربعة القاب فهو امنون بصفة كونــه الحاوي في ذاته جميع القدرة واموتيب بصفة كونه الروح الحاوي في ذاته جميع المعرفة وفتاح بصفة كونه الصانع كل شيء بحق وعدل واوزريس بصفة كونه الرحوم الشفوق والمحب

الاول فرّقه على الارض فتكوّنت منه البحار والانهار والينابيع والثاني رفعه في الهواء فتكوّن منه هذا الجلد الذي نشاهده فوقنا وربطه بسلسلة ابدية كي لا يتزعزع

« ولما راى اباب[1] رئيس القوات الشريرة في الطبيعة جمال العمل الذي يصنعه الاله اخذ يحاول افساده فحدث بينه وبين الالهة حرب انكسر فيها اباب وقبض عليه وزج في الظلمة الابدية

« وبعد هذا الظفر اكمل الاله كل عمل ووضع نظامات هذا الكون ورتب كلا من الالهة التي خلقها في وظيفته · ثم خلق الطيور والدبابات والوحوش والاشجار والنبات · ثم أخرج الناس من عينيه فخرج في الاول (الراتو) اي المصريين · ثم (النحسي) اي الزنوج سكان افريقيا · ثم (العمو) اي البيض سكان الشمال وجميع اسيا وفرقهم على وجه البسيطة فنموا وكثروا ولكنهم لم يكونوا يحسنون اولاً عمل شيء ما بل كانوا يتفاهمون بالاشارة ويقلدون الحيوانات في اصواتها فارسل اليهم (نو) الاله (هرمس)[2] فعلمهم جميع ما يحتاجون

(١) ان الاثار المصرية تدل على ان القدماء كانوا يصورون اباب هذا بصورة الحية · فالحية في تقاليدهم هي صورة الشيطان

(٢) ليس المصريون فقط من نسبوا اتصال الشرائع والاديان وجميع المعارف بهم الى انحدار الالهة وتعليمهم ذاك بل جميع الاديان القديمة والحديثة صنعت صنعهم فبعضها نسبت ذلك الى الوحي والبعض الى انحدار الالهة حتى ان الهنود

اليه وسلم اسراره الى اعظم عيالهم [1]

« اما الاشوريون يا عماه فيعتقدون « بان (إيلو) ومعنى الكلمة الله اوجد اولاً أنو او وانس وهو المادة عندهم حاوية الحياة في ذاتها ومحاطة بهواء لطيف يحركها . ثم لما اراد ان يظهر هذه الحياة التي اودعها فيها امر النسيم ان يحركها حركة اقوى فاحدث هذا العمل ظهور الاله سين والاله شمش (اعني القمر والشمس) ثم ظهور الالهة الرياح الاربع نوتوى و بورياس وكوابيا و بوع . ثم بعد ان اوجد ايلو المياه والطيور والدبابات والاسماك والوحوش والنبات اتخذ الاله كوابيا بوع امرأة فحبلت وولد لها ولدان آيون (قايين) و برتوغونس جدّي النسل البشري اللذين منهما وُلد اولاد ذكور واناث على شبههما [2]

« ولما تكاثر الناس ولم يكونوا يعرفون شيئاً من العلم والحكمة ارسل اليهم ايلو الاله وانس فعلمهم الديانة والصنائع والفنون الجميلة . ثم ترك

القاطنين البرازيل ينسبون جميع شرائعهم الدينية ومعارفهم الى رودا (اله الحب) الذي نزل اليهم في الزمان القديم وعلمهم كل شيء يحتاجونه كما روى هذا المؤرخ البرازيلي الشهير فيسكوندي دي بورتو سيغورو

(١) انظر كنتو المجلد الاول صفحة ٢٨٠ — ٢٨٣

(٢) بونسن تاريخه العام المجلد الخامس القسم الخامس وقيصر كنتو تاريخه العام مجلد اول صفحة ٤٣٦ — ٤٣٧

عند ذهابه كتاباً مقدساً حوى جميع اسرار الحكمة ومفاتيح المعرفة فاخذه الكهنة وكتموا ما فيه عن الناس ولم يطلع احد على اسراره سواهم

« وبعد انصراف هذا الاله اخذ الناس يخطئون و يتمردون على الالهة فاراد ايلوان يقاصهم بطوفان عظيم وقد ندم على صنعه البشر فجمع الالهة وشاورهم في ذلك فوافقوه على رأيه

« وكان بين الناس ملك يحب الالهة و يطيعهم اسمه كيسوثرس . فهذا اراد ايلوان يخلصه من الطوفان فارسل اليه الاله نوا (نوح) فكلمه من السماء قائلاً — يا رجل شوربباك يا ابن او بارتوتو ابنِ لك فلكاً كبيرًا وادخل اليه بزرة الحياة كلها من جميع الاجناس التي على وجه الارض لانني سابيد الخطأة بطوفان ثم اذهب وادفن الكتب المقدسة التي تحتوي على البدء والوسط والنهاية في شيبارا (مدينة الشمس) لانك ستؤخذ بعدئذٍ . فقال كيسوثرس — والى اين يا سيد ؟ فقال نوا — الى الالهة . فسمع كيسوثرس كلام نوا وصنع الفلك كما امره وادخل اليه من كل ذي حياة على الارض . وعندئذٍ كلمه الاله شمس من السماء قائلاً ادخل الان الى الفلك انت وعائلتك لاني سأمطر على الارض مطرًا شديدًا . فدخل كيسوثرس في المساء الى الفلك بعدما قدم في النهار ضحايا للالهة

وسلم دفة السفينة الى الربان ليقودها الى رؤوس الجبال الشامخة · وفي الصباح عصفت الزوبعة وزلزلت الرياح اقطار المسكونة وارعد « بين » اله العواصف ومشى نابو وشارو فزلزلا الجبال والسهول وجرَّ نرغال القدير العصيف وراءه وفتح ادار افواه الينابيع فتدفقت بقوة وكثرة حتى تعاظمت المياه على وجه الارض وهلك جميع الناس واصبحت الارض خاوية خالية · ولم يعد يرى الاخ اخاه ولا الاب ابنه فخاف باقي الالهة على نفوسهم وعولوا على الهرب الى السماوات العليا لان المياه تعالت فوق قمم الجبال · وعشتوريت بكت على الناس وندبتهم »

« وبعد مرور ستة ايام وست ليال انحبس الماء في اليوم السابع وبطل العصيف والزلزال وابتدأ الماء يجف رويداً رويداً · اما الفلك فاداره الربان نحو ارض نيزير واستقرَّ على جبل غور يانو · وبعد مرور سبعة ايام على سكون العواصف فتح كيسوثرس باب الفلك وافلت حمامة من الطيور التي معه فذهبت ولما لم تجد مكاناً تستقر عليه عادت اليه · فانتظر سبعة ايام اخرى وافلت قنبرة فذهبت وعادت اليه كالحمامة · فانتظر سبعة ايام اخرى وافلت الغراب فذهب ولم يعد لانه وجد جثثاً فنزل عليها فعلم كيسوثرس عندئذٍ ان الماء جفَّ عن وجه الارض وبعد سبعة ايام اخرى امره الاله نوى ان يخرج من الفلك هو ومن معه فلم يشأ وخاف على نفسه من الهلاك بطوفان اخر

فدخل اليه توًا وامسكه بيده واخرجه هو وجميع من كان معه فبنى مذبحاً واصعد عليه محرقات للالهة لانها نجته من الهلاك»[١]

«وبعد نجاة كيسوثرس من الطوفان ابتدأ نسله يتكاثر ثانيةً على وجه الارض وكانوا جابرة فاستكبروا بقوتهم وارتفاع قاماتهم واخذوا يحتقرون الالهة ويظنون نفوسهم اسمى واعظم منهم حتى حملتهم كبرياؤهم هذه على ان يشيدوا صرحاً عجيباً في ارتفاعه · وبينما كاد يناطح رأسه السماء هبت الرياح بامداد الالهة فحطمت مراقي البناء

(١) ان سيرة الطوفان هذه ملخصة عما نقله العلامة السيد يوسف الدبس في تاريخه لسوريا المجلد الاول صفحة ٨١ — ٨٥ وعما نقله قيصر كنتو في تاريخه العام مجلد اول صفحة ٣٢٤ - ٣٢٥ · اما هي في الاصل فكما روى مؤرخنا السيد الدبس (في تاريخ سوريا المجلد الاول عدد ٢٨ صفحة ٧٩ — ٨٠) منقولة عن صفائح من الاجر وجدت في مكتبة اشور بانيبال في نينوى ونقلت الى المتحف البريطاني · واذ لم تكن اولاً كاملة ارسلت الجريدة الانكليزية « دالي تلغراف » العالم جورج سميث على نفقتها الى بلاد الكلدان علّه يجد صفائح اخرى تسد الفراغ وتكملها فتوفق الى وجدان بعضها ايضاً · ولقد حتم العالم جورج بعد قراءتها بانها خطت بامر الملك اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد لكنها ماخوذة عن اصل متناه في القدم كتب قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد اعني قبل موسى واستدل على ذلك باستعمال كتاب اشور بانيبال احرفاً قديمة جداً في كلمات صوروها على الاصل ربما لعدم ادراكهم معناها

على البنائين وسميت هذه الخرابات بابل والناس الذين كانت لهم الى ذلك الحين لغة واحدة شرعوا منذ ذلك يتكلمون لغات مختلفة بامر الالهة » [1] فهذه هي قصصهم يا عماه في ابداع هذا الكون وقدم الخليقة والعالم

فابتسم عندئذٍ رعوئيل وقال — ان تقاليدهم يا ولدي لولا الاشراك بالله وتعداد الالهة تكاد تنطبق على تقاليدنا خصوصاً فيما يتعلق بقصتي الطوفان و برج بابل

فقال موسى — لا بدع يا عماه في هذا فان تقاليدنا كما تعلم مأخوذة عن الاشوريين ولم تختلف عنهم الا فيما هذبها العقل وطبقها على مبدإ التوحيد

— ولكن كيف تيسر يا ولدي لآبائنا ان يعرفوا سر التوحيد مع ان هذا الامر لم يعرفوه قبل خروجهم من اور الكلدان

فقال موسى — على ما ارى يا عماه ان اجدادنا لما ارتحلوا من اور الكلدان الى حاران [2] نقلوا معهم عبادة الاله ايل (اي اله الالهة)

(١) هذه الفقرة معربة بالحرف الواحد عن قيصر كنتو تاريخه العام المجلد الاول صفحة ٣٢ وهي في الاصل لباروز المؤرخ البابلي الشهير نقلها عنه ابيدان (احد كهنة هيكل اوزريس في مصر) ورواها اوسابيوس من جملة ما روى عن هذا الكاهن المؤرخ

(٢) « ان موقع اور الكلدان على ما اثبت العالم الفرنساوي اوبر في سنة ١٨٦٩

الذي كان الكلدان والاشوريون يجلونـه كثيرًا وحملوا معهم ايضاً كثيرًا من اصنامهم التي التزم ابونا ابرهيم فيما بعد ان يتركها عند موت ابيه وارتحاله الى ارض كنعان لانها كانت حملاً ثقيلاً عليه بسبب معيشته البدوية وانتقاله من مكان الى اخر وابقى على عبادة ايلو لانه اله الالهة واعظمهم وعلّم هذا لاولاده الذين اتبعوا طريقته وحفظوا عنه جميع التقاليد التي تعرفها اليوم · وهكذا كان ثقل الاصنام داعياً الى طرحها وطرح هذه داعياً الى تناسي وترك عبادة الالهـة العديدة وهذا ايضاً داعياً الى البقاء على عبادة اله واحد فقط [1] والاهتداء الى سر التوحيد الذي سيحل المجموع يوماً ما من كثير من الخرافات التي تضغط عليه وتثقله اذ يرفع عن العقل الحجب الكثيفة التي تستر عنه

ووافقه عليه جميع العلماء هو في المحل المعروف الان بالمقائر ويسماه بعض الجغرافيين ام قير وهو في وسط الطريق بين بابل ومصب نهر الفرات في خليج العجم حيث تشاهد الى الان اكمة عليها عدة اخربة · اما حاران فهي المعروفة الان بحران وموقعها في الجنوب من اورفه على بُعد ثمان ساعات وهي الان خربة وفيها معبد ينسبونه الى ابرهيم ويسماها اللاتينيون واليونان حارّه وقد اشتهرت في التاريخ بانتصار البرثيين على كراسوس الروماني » انظر تاريخ سوريا المجلد الثاني صفحة ٧ — ٨ عدد ١٥٢ للعلامة السيد يوسف الدبس)

(١) بدلنا على ان اصل عبادة ابرهيم وثنية رغبته في تضحية ابنه اسحق للاله الامر الذي كان من عوائد الاشوريين والكلدان والقبائل التي نزل ابرهيم بينها في سوريا بعد ارتحاله من حاران

فقال رعوئيل — نعم نعم يا ولدي ان انتشار هذا السر اذا لم يحلّ المجموع من جميع اثقاله فسيرفع عنه على الاقل سلطة الوهم التي يؤيدها الكهنة بتعاليمهم الوثنية!

وبينما رعوئيل يتكلم وموسى يصغي اليه علا في صيرة الغنم التي بجانب البيت نباح الكلاب فقطعا حديثهما ونهضا حالاً ليريا ماذا الخبر

١١

وكان الضباب كثيفاً جداً فلم يستطع موسى ورعوئيل ان يشاهدا عن بعدٍ الطارق الغريب الذي نبه الكلاب في تلك الساعة فتقدما الى باب الصيرة وفتحاه وقد ظنا ان الذئب تسلق الجدار وسطا على الغنم · ولكنهما وجدا القطيع لا يزال راقداً مطمئناً فاغلقا الباب وعادا الى الخارج

واذ كان نباح الكلاب يزداد مرة عن اخرى وقفا بجانب الصيرة ينتظران وصول الطارق · وبعد بضع ثوانٍ سمعا صوتاً يقول -- ردوا كلابكم عني فانني قادمٌ غريب

فاحدث هذا الصوت في موسى تاثيرًا عظيماً فقال بصوت ملؤه الفرح — لا باس عليك يا اخي تقدم فانت في امان

فانذهل رعوئيل لهذا الامر وقال — ومن القادم ! هل تعرفه ؟

فقال موسى — نعم يا عماه اعرفه منذ رأت عيناي نور الحياة . هو اخي هارون

فقال رعوئيل — هلمَّ اذن نستقبله

فقال موسى — كلا بل دعنا ننتظره هنا لارى هل يعرفني حيث كما تعلم منذ مدة طويلة لم نشاهد بعضنا البعض

وكان الطارق قد اصبح على مقربة منهما دون ان يرياه بسبب تكاثف الضباب وقد سمع كل ما دار بينهما فقال — نعم عرفتك يا الثغ [1] . ألست موسى بن عمرام اللاوي ؟

فقال موسى وانت الستَ هارون اخاه ؟

فقال هارون — بلى .

— فمن اين والى اين ؟

— اتيت من ارض جاسان [2] الى هنا لاستعلم عن سلامتك

(1) هكذا روى الكتاب ان موسى كان الثغ اللسان

(2) ارض جاسان واقعة في الجهة الشمالية الشرقية من مصر حيث الان المديرية الشرقية كما كشف عن هذا العالم ادوار نافيل الذي جاء الى مصر سنة ١٨٨٥ منفذًا من الجمعية الانكليزية المعروفة بلجنة البحث في مصر لهذا الغرض

— حالي حسنة فكيف حالك انت وحال بني اسرائيل ؟

— حالي كذلك حسنة اما بنو اسرائيل فلا يزالون اذلاء كما تركتهم

— وهل لا يزالون راضين بحالتهم هذه ؟

— كلا انني ارى الجميع يتذمرون من ثقل نير العبودية الذي يرزحون تحته

— وكيف حال باقي الاسرى والغرباء ؟

— الجميع في اسوإ حال مثلنا والاضطهاد شامل ولكن ياملون بالنجاة في وقت قريب ويستعدون لثورة كبرى على ما اسمع

— وهل تعرف احداً من الزعماء

— كلا لا اعرف احداً ولكن لا يمكن ان يكونوا من غير اولاد الملوك والامراء الاسرى

— هل تعرف اميراً سورياً يدعى جاثر ؟

— نعم اعرفه وهو لا يزال حياً وكثيراً ما يسألني عنك

— ماذا حدث من الانقلابات في مدة غيابي

— لقد مات رعمسيس الثاني منذ نيف وعشرين عاماً وحنطوه[1]

---

(١) قد كان للتحنيط عند قدماء المصريين طريقتان الاولى قليلة النفقة للطبقة الوسطى والفقراء والثانية بالعكس للاغنياء . اما الاولى فهي ادخال سوائل

ودفنوه وخلفه في الملك ثالث اولاده منفتاح الاول . و بعد ان ملك ثمانية اعوام مات وقامت قيامة الاحزاب على تعيين خلف له فمنهم من اراد ان يخلفه ابنه ساتي الثاني ومنهم من اراد انمازاس حفيد رعمسيس الثاني من ابنه البكر الذي مات قبل منفتاح ثم تغلب حزب انمازاس ورقي العرش لكنه ما ملك الا قليلاً ومات منذ مدة يسيرة وخلفه منفتاح الثاني سفتاح. ولذلك ترى مصر الان من جرَّاء هذا مضطربة ونار الحرب الاهلية تستعر من كل ناحية والاجانب والاسرى الذين منذ امد بعيد يترقبون مثل هذه الفرصة ينفخون نار الثورة

كاوية في باطن الجسم لتذيب ما فيه من المعى والقلب والاحشاء ثم يوضع الجسم بعد ذلك في اناء مملوء بالنطرون (كربونات الصوده) حتى ينظف باطنه فيفرغ و يغسل و يجفف و يدفن . واما الطريقة الثانية فهي شق الجثة من الجانب الايسر ونزع المعى والقلب والاحشاء . ثم اخراج الدماغ بآلة معكوفة تمد اليه من المنخرين . ومتى تم ذلك يُدخل الخنوط في جوف الجثة و يحشى الدماغ بالاسفلت الذائب ليتحجر فيه بعد دخوله اليه . وفي بعض الاحيان يضعون نسيجاً وخرقاً مكان الاسفلت ثم يعرضون الجثة لمجرى هواء حارّ قصد تجفيفها و يغطسونها بعد ذلك بالنطرون . ثم يطلونها بذائب الاسفلت حفظاً لها من تقلبات الطقس . و بعد الفراغ من هذا كله يأخذون لفائف من نسيج دقيق و يغمسونها بمركب نباتي ثم يلفون بها الاعضاء واحداً واحداً لفاً محكماً . ومتى فرغوا من هذا لفوها معاً بلفافة واحدة وجعلوا اليدين ممدودتين على طول الجثة او جعلوها على صدرها ثم توضع في مضجعها الابدي حيث تبقى دهوراً دون ان يعتريها فساد» (بتصرف عن الجامعة الجزء ٢١ و٢٢ من السنة الاولى المجلد الثاني صفحة ٥٠٢)

— وماذا حدث غير هذا ؟

— لا شيء غير موت مربيتك ترموتيس بعد ابيها بمدة قليلة

وهنا لا يستطيع القارىء ان يتصور ماذا احدث هذا النبأ لموسى . فان صوته ارتجف واعترته الدهشة فاخذ ينظر الى اخيه كانه غير مصدق لما سمعه . ثم قال وقد امتلأت مقلتاه دموعاً — وهل ماتت ترموتيس ؟ !

فاغرورقت عينا هارون بالدموع واطرق الى الارض ولم يستطع ان يرد جواباً .

فوضع موسى عندئذٍ وجهه بين يديه واخذ يبكي كالاطفال وتجلت فيه اذ ذاك فضيلة احترام التربية بابهى مظاهرها الشرقية وبعد سكوت مهيب استمرَّ برهةً اراد رعوئيل ان يصرف افكار موسى وحزنه فالتفت اليه وقال — كفى ياولدي فاننا ما وجدنا لنحيا الى الابد !

فرفع موسى رأسه متنهداً وقال — ولا لنموت ونذهب كالظل يا عماه لانه لو كان الموت الحقيقي هو سقوط هذا الهيكل الترابي الذي تقيم فيه النفس فما كان من لذة حقيقيةٍ في الحياة ولا مزية للانسان على البهيمة

— فاذن لماذا وجدنا ؟ !

— وجدنا لكي نحيا ولا نموت لان الحياة الحقيقية هي حياة النفس بالفضائل والموت هو موتها بالرذائل . فكم من اناسٍ تراهم احياء وهم

موتى في الحقيقة لان الرذيلة خنقت نفوسهم واناس ماتوا منذ ازمنة ولا يزالون احياء بالفضائل كزهرة العطر التي تقطع من ساقها وتوخذ وتجفف فان رائحتها الزكية تبقى مهما طال عليها المدى

فابتسم رعوئيل من جواب موسى وقال — لقد صدقت ياولدي. وكأن العناية التي تنظر في كل لحظة شقاء هذا المجموع ترسل لهُ من وقت الى آخر امثال هاته الزهرة لتلطف بعرفها الطيب السموم التي تهب عليه

فقال موسى — ولكن اواه ان هاته الزهرة قلّما يشفق بها منجل الحصّاد وكثيرًا ما يقطعها اذ تكون لاتزال برعمة بعد كما قطعت من غصن هذه الحياة مربيتي

— ولكن يجب ان نتعزى ونحتمل المصائب بكل صبر اذ هكذا تعودنا ان نرى يد الموت تمدُّ الى هذا المجموع كما يدُّ الغطاس يده الى قاع البحر ويقبض بها على الاصداف التي كثيرًا ما يكون في بعضها لآلىء غالية الثمن

فهزّ موسى راسهُ علامة الجواب ولم يعد يتكلم. اما رعوئيل فالتفت الى هارون وقال — ربماتكون تعبانًا فاذا كنت تريد ان تستريح فقم الى فراشك.

فقال موسى — لقد مضى الهزيع الثاني من الليل فحسنٌ ان نقوم

جميعاً

قال هذا ونهض فقاموا جميعهم

١٢

مرّت تلك الليلة دون ان يذوق موسى لذة الرقاد وكان تارةً يفكر في شعبه وذلهم وانتهاز فرصة الاضطراب الجاري عندئذٍ في مصر لتحريرهم من عبوديتهم وطوراً ينثني عن عزمه هذا ويتصور صعوبة العمل الذي سيقدم عليه والاخطار التي تتهدده. ولم يزل هكذا بين اقدام واحجام حتى مزّق الفجر قميص الغلس فقام من فراشه وقد تمثلت له حالة امته بهيأة استهان الموت في سبيلها واطلع امرأته على عزمه وامرها ان تستعد للسفر. فاشارت عليه بالعدول عن هذا الامر ثم ذهبت واخبرت اباها. فجاء رعوئيل وحاول ان يثنيه عن عزمه اولاً واذ رأى اصراره زيّن له ان يبقي امرأته واولاده عنده ويتحدر وحده الى مصر. فاقتنع من حميه بهذا واعدَّ بعض امتعته وسافر في اليوم التالي

وفي الطريق التفت موسى الى اخيه وقال — هل لاحظت يا هارون في هذه الاونة الاخيرة رغبةً من شيوخ اسرائيل في الخروج من تحت نير العبودية المصرية ؟

فقال هارون — لم الاحظ فقط بل احقق انهم يفضلون الموت

على الحالة التي هم فيها الآن

وهل ينقادون اليَّ يا ترى اذا سهلتُ لهم طريق الخروج وسعيت في تحريرهم ؟

— لا اظنّهم يخالفونك اذا كانت هذه الطريق سليمة

— انني اكفل لهم الان السلامة بعد اجتيازنا حدود مصر .

— امّا اجتياز هذه الحدود فهو الامر الذي انا ذاهب لاسعى وراءه

— هل تريد ان اخبر شيوخ اسرائيل عنك ؟

— لا بأس من هذا ليكونوا على استعداد ولكن احذر من ان يفشو هذا الامر فتحبط مساعينا

— لا تخشَ البتة انني ساجمعهم واخبرهم بهذا سرّاً واسأَلهم كتمه الى حين

— افعل ما يبدو لك

وكان موسى وهارون يجدان في السير. فلمّا كان مساء اليوم الثاني من سفرهما دخلا المحلة وباتا . وفي الصباح خرج موسى الى مدينة طيبة واخذ يجول في شوارعها وازقتها متأملاً في غرائب البنايات التي شادها رعمسيس وخلفاؤه في اثناء تغيبه . وفيما هو الظهيرة يطوف في احد اطراف المدينة احسّ بحرّ شديد فمال الى شجرةٍ بجانب الطريق وجلس على حجرٍ تحتها ليأخذ لنفسهِ راحةً . وبعد ان استراح قليلاً ابصر

رجلاً قادماً نحوه وقد البسهُ الشيب برقع الشيخوخة لكنه لم يستطع ان يخفي جيداً قصر المرحلة التي قطعها من طريق هذه الحياة وما لبث الرجل ان وصل وقال — حيٌّ ياصاح هل تسمح لي ان اجلس هنا معك قليلاً لاخذ لنفسي راحةً ؟

ولم يكد هذا الرجل ينهي كلمتهُ حتى شعر موسى من نفسه بانعطافٍ شديدٍ اليه فقال ووجههُ قد امتلأَ بشراً

— حيٌّ انت يامولاي . اهلاً بك !

فجلس الرجل ونزع عمامتهُ عن رأسه وقال — اننا حتى في الظلّ حيث نجلس بلا عملٍ نشعر بلذع الحرّ فكيف اذن باولئك العمال المساكين الذين يحنون ظهورهم لاثقال العمل منذ الفجر حتى الغروب

فقال موسى — هكذا اراد و يريد البعض ياأخي ان يملأُوا بطونهم من تعب المساكين و كؤُوسهم من عرقهم وان تبقى حالة هذا المجموع كما هيَ الان عبارة عن ضعيفٍ يسحق وقويّ يستبد ومظلوم يسترحم ولا من يصغى ولا من يرى

فقال الرجل — وهل تظن ان في باقي البلدان والامصار الاخرى يجري ما هو جارٍ في مصر الان

— على ما ارى ان الجميع سواءٌ وحيثما وجد الفقراء والمساكين فهم مهانون ومستعبدون وحقوقهم مهضومة من الاغنياء والعظماء

— ان في كثيرٍ من البلدان والامصار شرائع ونظامات تساوى بها جميع افراد الرعية وتكفل للمسكين حقه وراحته٬

— لا تغتر ياخي بما تسمع ٠ ان الشرائع والقوانين والنظامات التي توضع للهيأة لا تنفذ الاَّ في الفقراء والمساكين ٠ وكفى ان يكون واضعيها الروساء والمتسلطون كي لا تنفذ الاَّ في المرؤوسين والمتسلط عليهم فهي من هذه الحيثية كخيوط العنكبوت لاتقوى الاَّ على مسك الذباب فقط ٠ وها شرائع مصر وخصوصاً القسم الديني منها احسن وافضل شرائع العالم من حيث مساواة الافراد بالحقوق والواجبات وهي مع ذلك لاتجدي اولئك المساكين والبؤساء نفعاً

— يظهر لي انك غريب ياسيدي فهل لك المام بشرائع مصر ؟

— لستُ غريباً ياسيدي بل انا مصري ولدتُ في مصر وتربيت في اعظم قصورها وتعلمت في احسن مدراسها على اعظم علمآئها وكبير كهنتها ولكني حيث ولدتُ في اكواخ المساكين والفقراء هكذا يريدون ان اكون غريباً لكي ابقى عبداً ابداً

— لقد ذكرتني بكلامك هذا بصديق تربى هذه التربية وقد فارقته منذ اربعين سنة تقريباً وودعته قريباً من هذا المكان واتمنى اليوم لو يكون موجوداً هنا في مصر

— ومن يعلم ما اذا كنت انا ذلك الذي تعنيه وانت صديقه جاثر

الامير السوري · انني اجد من نفسي انعطافاً اليك كالانعطاف الذي كنت اجده عند لقاء ذلك الصديق

فابتسم وقال — نعم نعم انت هو صديقي موسى · آه ياعزيزي كيف غيرتنا الايام حتى لم نعد نعرف بعضنا البعض

ثمَّ تعانقا واخذا يبكيان

وبعد ان فرغا من سلامهما قال جاثر لموسى — اين كنتَ ياعزيزي كل هذه المدة ؟

فقال موسى — كنتُ في ارض مدين ارعى غنم عمي رعوئيل وادرس جغرافية تلك الارض وقد اتممتُ كل شيء في الخارج ولم يبقَ الاَّ تدبير طريقة الفرار واجتياز الحدود الامر الذي جئتُ لادبره وادرسه هنا في مصر

فقال جاثر — حسنٌ ياعزيزي ان امر خروجكم سيكون فرعاً من مشروعنا الذي ننويه وقد صار من القريب المباشرة به لاننا سنغتنم فرصة الاحوال الحاضرة للقيام به

— وما هو المشروع الذي تنوونهُ ؟

— هو ثورة كبرى نقوم بها في جملة امكنة وتضطر بواسطتها الحكومة على تجزئة قوتها على اخمادها وبهذه التجزئة نستطيع ان نفوز عليها

— وهل هذه اول مرَّة تتآمرون بها على الحكومة ؟

— كلاّ اننا تآمرنا مرة وخابت مساعينا ولكن لم يدرِ بنا احد.
وذلك انه بعد ماملك رعمسيس الثاني نحواً من سبع وستين سنة ومات وقام على العرش ابنه منفتاح الاول راى فيه بعض الاحزاب المضادة ضعفاً وتساهلاً لم يروه في ايام والدهِ فاخذوا يتآمرون على خلعه وتنصيب غيره من افراد السلالة المالكة ورأينا نحن روساء الاجانب ان نستغنم هذه الفرصة لاسقاط سلطة الحكومة وسيطرتها الخارجية فكتبنا وارسلنا جواسيسنا الى جميع اعدائها نستحثهم على النهوض ووعدناهم باننا ننحاز اليهم جهاراً بعد اول معركة يفوزون بها على الحدود. فلبى طلبنا الليبيون و بعض سكان جزر البحر المتوسط واسيا الصغرى وعدد قليل من السوديين وهجموا على شمالي مصر براً و بحراً [1] فانتبه منفتاح من غفلته عندئذٍ وجرَّد عليهم جيشاً جراراً و بعد معارك كبرى قتل فيها عدد ليس بقليل من الجانبين ملك منفتاح اكتافهم واقتاد منهم نحو ٩٣٧٦ اسيراً الى مصر. واذ رأينا هبوط مساعينا هذه اخلدنا الى السكون ولبثنا نترقب فرصة اخرى

لكن منفتاح بعد ان ملك ثمانية اعوام [2] ماتَ وانقسم الشعب

(١) روى هذهِ الحرب التي جرت في ايام منفتاح الاول المؤرخ الايطالي قيصر كنتو واسند اسبابها الى موامرات داخلية اثارت اعداء رعمسيس الثاني على القيام بها انظر كنتو تاريخه العام المجلد الاول صفحة ٣٥٨.

(٢) هكذا يرجع هذه المدة مؤرخنا الشهير العلامة السيد يوسف الدبس

بعد موته الى قسمين الواحد يريد ان يخلفهُ ابنه ساتي الثاني والاخر يريد امنمازاس حفيد رعميس الثاني من ابنه البكر الذي مات قبل منفتاح واذ كان الحزب المنشق اقوى تمكن من اجلاس امنمازاس على العرش . ولكن مع هذا لم يسقط حزب ساتي لانه بعد ان ملك امنمازاس بضعة اعوام مات وخلفه ابنه منفتاح الثاني سفتاح الذي ارتقى الى العرش بما لزوجته الملكة تاوسر ووزيره باي من النفوذ واشرك معه في الملك ساتي ايضاً

وعلى ما نحقق و يظهر من الاحوال الحاضرة ان ساتي سيغتنم فرصة حداثة سنّ الملك الغلام ويستقل بالملك . كما اننا نحن ايضاً سنغتنم هذا الاضطراب وننهض للتملص من ربقة نير العبودية المصرية بواسطة ثورة كبرى نحن مزمعون ان نقوم بها ولنا هذه المرة كلّ الثقة باننا سنكون الفائزين نظراً لمواطأة قسم كبير لنا من الوطنيين على قلب الحكومة واغتصاب العرش من الملك الصغير ولضعف الجيش المصري وفقده اكثر رجاله المحنكين الذين كانوا في ايام رعمسيس الثاني

— وكيف تنوون ان تبدأُوا بالثورة ؟

— اننا لانزال نوالي اجتماعاتنا لدرس هذه المسألة جيداً وغداً آخذك معي الى المجمع وهناك تطلع على كلّ شيء

وكذلك غيره من المؤرخين (تاريخ سوريا مجلد الثاني صفحة ١٢١)

— واين اجدك غداً؟

— انتظرك انا هنا او تنتظرني انت

— اذن الى الغد ثم قاما وتعانقا وودعا بعضهما البعض وافترقا

١٣

بعد ان ترك موسى صديقه نجاثر ذهب الى محلة الاسرائيليين فوجد اخاه هارون قد جمع شيوخ الشعب واخبرهم بخبره . فعاد واخذ اخاه ثانية وقابلهم واطلعهم على بعض استعداداته والتدبيرات التي اتخذها فوجد منهم ارتياحاً الى عمله ومشروعه ووعدوه جميعهم بمساعدته والاخذ بناصره بتشجيع الشعب وترغيبه للانقياد اليه

واذ رأى موسى ابتداء نجاحه في هذه المهمة بكر في الغد وخرج الى مدينة طيبة وعند المساء ذهب الى المكان الذي تواعد مع صديقه بالامس على الاجتماع به فوجده جالساً هناك ينتظره فسلما على بعضهما وامسك كل بيد صاحبه وساروا الى المجمع

اما المجمع فقد كان يعقد جلساته خارج المدينة في مقلع كبير تحت الارض تستخرج منه الحكومة الحجارة لتشييد بناياتها وتسخر في ذلك الوفا من العمال الذين كان بينهم عدد وافر من رؤساء ومدبري

ومر بدي الثورة

ولقد اتخذ الثوار هذا المكان للاجتماع والموآمرة لعدم وجود الخطر عليهم هناك من مراقبة الحكومة لهم حيث ان الروءساء والمدبرين ومر بدي الثورة كانوا في الظاهر عمالاً بسطاء يبيتون هناك في الليل بعد ان يكونوا في النهار احنوا ظهورهم لاثقال الحجارة وسوط النظار ولذلك فلم يكن يداخل الحكومة اقل شكٍ فيهم من هذه الكيفية

اما موسى وصديقه جاثر فحالما وصلا الى مكان المجمع دخلا الى الى حيث كان كثيرٌ من الاعضاء ملتثمين ينتظرون وصولهما · وبعد ان جاسا على وسادات من القش اليابس التفت جاثر الى الحاضرين وقال — لقد جئتكم اليوم ايها الاخوة باخٍ يئن من سلطة الاستبداد المصري مثلنا ويحاول خلع هذا النير · ولكن لا عن عاتقه فقط بل عن عاتق نحو ستمائة الف مقاتل تحت امرته وطوع اشارته من العبرانيين شعبه الذين تعرفونهم ولذلك ارجوكم ان تقبلوه في محفلنا ليضم يده الى ايدينا في العمل الذي ننويه

وعندما انتهى جاثر من كلامه مدَّ من بين الجالسين عنقه شيخ طاعن في السنّ وقال — اننا بكل ترحاب نقبله لا سيما وحالتنا تستدعي منا التعاضد — هذا المبدأ الشريف الذي نوءلف به الان قوة هائلة لتقف في وجه عدونا

وبعد ان فرغ الشيخ من كلامه قرّب موسى فمه من اذن جائر وقال — من هذا الذي تكلم الان ؟

فقال جائر — هو بيزريس الامير الاشوري ورئيس المحفل وزعيم الثورة

فالتفت موسى اذ ذاك الى الشيخ الرئيس وقال — انني اشكر لطف سيدي واعده بتضحية نفسي في سبيل غايتنا الشريفة

فقابل الشيخ الرئيس شكر موسى بابتسامة ثم اجال طرفه في الجميع واعلن افتتاح الجلسة وقال

ايها الاخوة !

الشمس تبزغ على جميع الكائنات فلماذا هذا يتمتع بنورها وحرارتها اطراف يومه وذاك يحرم من هذه اللذة ويساق الى اسفل الارض ليعمل تحت اثقال الردم والحجارة في ظلمة حفائر المعادن ؟ !

الظل مباح للجميع فلماذا هذا يضطجع تحته النهار كلهُ متلذذاً بتصورات نفسه الفاسدة وذاك يساق الى الصحراء حيث يقاسي الحر الشديد وسموم الهواء المحرق الذي يهب من جوانبها ؟ !

الغذاء من الهبات التي شملت بها الطبيعة جميع الناس على السواء فلماذا هذا ككلاب الصيد يتعب ويشقى في استنتاج واستخراج ثمرات الارض ولا يستطيع ان يملأ جوفه وكثيراً ما يبيتُ طاوي

الحشى وذاك يستأثر بجميع ما تدره الارض على هذا ؟!

كلنا ايها الاخوة سواء ولا مزية لاحدٍ منا على الآخر الا بالفضائل فقط فما معنى هذه الحجب الكثيفة وهذه الحواجز التي تفصل هذا عن ذاك ؟!

ما فضلي عليك ياصاح او ما فضلك عليّ . ان صنعتُ معك معروفاً فقد عملت بالواجب الذي علي وليس ليَ فضل . وان لم اصنع فانا مقصر!

لكن ايها الاخوة هكذا يريد فريق من الناس ان يبقى هذا التفاوت وان تزداد الحالة الحاضرة فساداً على فسادٍ لكي نبقى مستعبدين ومضغوطاً علينا . فهل ترون من الممكن احتمال هذا الظلم والصبر على هذا الذل والعبودية ؟!

تستطيع سلطة الرذيلة احياناً ان تضغط على الانسان وتلفّ نفسه بملاءة الملذات الفاسدة فتبقى ابداً راقدة تحتَ ظل جناحيها . اما سلطة الانسان على اخيه والضغط عليه فما لا يستطاع !

يستطيع الجواد الذي يعتز براكبه كما يعتز الفقير احياناً بتسخير الغني له ان يحتمل قرعة السوط . اما الانسان فلا يستطيع هذا والنفس الابية لا تقيم على الذل فاما ان تنشق او تشق السلطة التي تحصرها وتضغط عليها !

ايها الاخوة انا لا اشكُّ في اباءِ كلٍّ منكم وعزة نفسه وشجاعته

ولذلك ارجوكم الان ان تقرروا اليوم نهائياً كيفية البدء بخلع هذا النير الثقيل الذي هو على عاتق كل منا وان تغتنموا فرصة ضعف الحكومة الحالية واشتغالها بالانقسام على ذاتها للشروع في عملنا العظيم الذي ننو يه

وعندما فرغ الرئيس من كلامه اخذ كلٌّ من الاعضاء بابداء رأيه في هذه المسألة فلما وصل الدور الى جاثر وقف بينهم وقال — ايها الاخوة ارجوكم ان تسمعوا لي جيداً

انه بعد ان صدر الامر الى روساء العمال بان يختاروا منا عشرة الاف عامل لتذهب الى مصر مصر السفلى لاتمام فتح القناة التي باشر بها رعمسيس الثاني لوصل البحر الاحمر بالبحيرات المرة [1] ذهبت الى هناك لامر قام في نفسي وتجولت في تلك الانحاء مدة ثلاثة ايام تحققت في اثنائها ان حامية الحصون الشمالية عند حدود العريش ضعيفة جداً لان الجيش الذي كان معسكراً هناك استدعته الحكومة الى العاصمة خوفاً من مكيدة يكيدها حزب ساتي لمنفتاح الثاني ورأيت ايضاً ان شعو بنا التي هناك مستعدة للقيام نظيرنا وعندها رغبة واقدام على العمل العظيم الذي ننو يه

اما الامر الذي قام في نفسي فهو ان نستغنم فرصة خلاء الحصون

(١) ان اثار هذه القناة ظاهرة الى اليوم وقد ذكرها هيرودت واكتشفها بوكرد في القرن الماضي (تاريخ سوريا المجلد الثاني صفحة ١١٧)

الشمالية من القوات ونهاجمها بشعوبنا التي هناك وبالعشرة الألف التي ستذهب من هنا ونحتلها احتلالاً تاماً ٠ وبعد الاحتلال نستنجد باعداء الدولة في الخارج وعلى الاخص سكان جزر المتوسط فيوافينا هؤلاء باسطولهم فنركب معهم ونقلع من هنا الى الاناضول او احدى جزرهم وننشىء لنا مستعمرة ٠ ولي ايها الاخوة تمام الثقة باننا نفوز في مشروعنا هذا لان النزاع العظيم الذي قام بين الدولتين المصرية في ايام رعمسيس الثاني والحثية في ايام موتنار وكيناسار اضعف قواهما كما ان الثورات الاهلية والتعديات الخارجية التي لحقت بكلٍّ منهما زادت ضعفهما ضعفاً حتى انهما اصبحتا الان في الحقيقة جسمين هائلين بلا قوة وخصوصاً هذه الدولة المصرية التي بتنازع امرائها على العرش وتناظر احزابهم مناظرة لم يلتفت فيها الى المصلحة العامة سقطت في هذه المدة الاخيرة سقطة هائلة وستسقط ايضاً فيما بعد سقوطاً اعظم ٠ ولذلك فلا خوف علينا من هاته التي سنودعها ولا من تلك التي ربما زاحمناها على بعض املاكها في اسيا الصغرى (١)

اما اخواننا الاسرائيليون فانهم سيغتنمون فرصة احتلالنا للحصون

(١) ان الاجانب الذين اتى بهم توتمس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة ورعمسيس الثاني من ملوك الدولة التاسعة عشرة في غزونيهما لبابل كرهوا كسواهم من الاجانب والغرباء البقاء على الذل والاستعباد وتامروا فيما بينهم على خلع هذا النير الثقيل واغتنموا فرصة ضعف الدولة المصرية بعد موت منفتاح

على الحدود و يخرجون جميعاً خارج مصر الى ناحية بلاد العرب حيث اعدّ لهم اخي موسى مكاناً

وعندما فرغ جاثر من كلامه وقع رأيه هذا عندهم موقع القبول فامر الرئيس بان يعمل به وان يستعد الاخوة لهذا اليوم العظيم و يشجعوا بعضهم البعض · و بعد ان قرروا كلّ شيء انفض المجلس وخرج موسى وصديقه الى المدينة فباتا ليلتهما هناك · وفي الغد بكر موسى وودع صديقه جاثر وسافر الى محلة العبرانيين

١٤

وكان الشعب الاسرائيلي ينتظر موسى بفروغ صبر فلما وصل الى المحلة لاقوه بكل حفاوة واكرام وجاء الشيوخ للسلام عليه فاخبرهم بكل ما صنع و كيف انهم سيخرجون في الوقت القريب من مصر· ثم امرهم بان يخبروا الشعب ليستعد للسفر وان لا يخرج احدٌ بمواشيه الى البرية فيما بعد · فَسُرَّ الشيوخ بهذا الخبر واعلموا الشعب به وقالوا لهم كما امر موسى

الاول فهربوا الى الحدود ووقعوا المصريين في عدة معارك انتصروا فيها عليهم و بعدد اجنبي استطاعوا ان يرحلوا من مصر و يذهبوا الى اسيا الصغرى حيث انشأوا مستعمرة بقرب ترابا دعوها بابل باسم وطنهم الاول (انظر كنتو المجلد الاول صفحة ٣٦٠)

اما الاشوريون فبعد سفر موسى ببضعة ايام صدر الامر الى رؤسائهم ثانية بالمسير الى مصر السفلى ٠ وكأن حزب الامير ساتي ادرك معنى سحب الحكومة للجيش المعسكر على الحدود وخافوا من ان يضايقهم الاجانب بانحيازهم الى الحزب الآخر اذا ارادوا القيام بما ينوون من انتزاع السلطة من منفتاح وتسليمها الى ساتي فارادوا ان يصرفوهم عن جوار العاصمة فلم يروا احسن من اتمام فتح القناة التي شرع فيها رعمسيس لوصل البحر الاحمر بالبحيرات المرة لابعاد العدد الغفير منهم لانَّ اهمية العمل تستغرق الالوف من العمال فسعوا بما لهم من النفوذ وحملوا الحكومة على ارصاد تلك الحملة للمباشرة كما مرَّ

اما الرؤساء فقد كانوا مسرورين من العمال هذه المرة بخلاف العادة لانهم لم يتعودوا منهم هذه الطاعة من قبل حتى انه ذهب منهم اكثر من العدد الذي عينته الحكومة

لكن هذه الطاعة التي وجدها النظار في بادىء الامر تحولت الى عصيان وتمرد فيما بعد ٠ لانَّ العمال عندما وصلوا الى مصر السفلى طلبوا ان يذهبوا الى اخوانهم ليشاهدوهم اولاً فلم يسمح لهم النظار بهذا فقاموا عليهم وقتلوهم وانضموا الى اخوانهم الذين استقبلوهم بكل ترحاب

وبلغ الخبر آذان الاسرائيليين فارسلوا يقولون لهم اننا نقوم معكم

ونقاتل قتالكم حتى تنتصروا او نموت كلنا · فارسل اليهم الاشوريون يقولون : اذا شاء اخواننا ان نتعاضد في هذا الامر فقوموا اذن في هذا الليل ولاقونا الى حصن سكوت · فاجاب الاسرائيليون طلب الاشوريين وقاموا في الهزيع الثاني من الليل وحملوا امتعتهم واثاثهم وساقوا مواشيهم وساروا شمالاً « في وادي توميلات في جنوبيّ المديرية المسماة الان بالشرقية حيث قناة الماء التي كشف عنها حديثاً وحلوا عند الصباح في سكوت »[١] فوجدوا الاشوريين قد سبقوهم الى هناك فاحاطوا جميعهم بالحصن وضربوا حاميته واحتلوه « ثم ارتحلوا في ذلك اليوم وبلغوا اطراف البرية وعسكروا حول حصن ايتام الذي بناه الفراعنة لصدّ هجمات العرب »[٢] ثم قاموا على الحامية التي فيه وقتلوها واحتلوه · واذ رأى الاشوريون ضعف الحامية التي في الحصون قالوا للاسرائيليين : لماذا يجهد اخواننا انفسهم بعد الان ان الحصون خالية من الرجال وها قد احتلينا حصنين من اهمها فليعد اخواننا الان في طريقهم

فقال موسى—دعونا نقاتل معكم حتى تحتلوا جميع الحصون وعندما نصل الى العريش نجتاز المضيق الفاصل بين بحيرة سربونيس — هيَ

(١) و (٢) كلا الرأيين للاب فيكتورو رواهما في كتابه (الكتاب والاكتشافات الحديثة)

بحيرة البردويل الان — والبحر المتوسط ونخرج من هناك الى البرية

فقال زعماء الاشوريين — كلاً اننا لا نريد ان يقع اخواننا في الاخطار العظيمة التي تحدق بهم في هذه الطريق · ولذلك نسألكم ان تعودوا قبل فوات الفرصة والحاق جيش المصريين بنا وتعبروا من ناحية البحر الاحمر فان طريقكم من هناك سليمة وليس فيها خطر الان البتة

فاذعن الاسرائيليون لكلام الاشوريين وارتدوا نحو الجنوب متخذين شواطىء البحيرات المرة طريقاً لهم بسبب احتياجهم الى الماء والكلاء

وبعد قيام الاشوريين على تظاهرهم واحتلالهم حصن سكوت بلغ الخبر آذان حاكم تلك المقاطعة فارسل يعلم حكومته بما صنعه هؤلاء · فاهتمت الحكومة لهذا الامر وقام حزب الامير ساتي يطلب ارجاع الجنود الى معسكرها · فابى زعماء الحزب الثاني هذا واوجسوا خيفة من سوء العاقبة · فساد الاضطراب عندئذٍ في العاصمة واخذ حزب ساتي يلح بارجاع الجنود الى مراكزها واخيراً اذ رأوا اضطراب الحكومة في ملافاة الفوضى التي حدثت من جراء هذا نادوا باميرهم ملكاً على مصر كلها وخلعوا منفتاح الثاني سفتاح وقبضوا عليه وعلى زعماء حزبه وكبار رجاله ونفوهم الى بلاد النوبة

وبعد ان استقرّ ساتي في العرش امرَ بان تعود الجنود الى مراكزها لاخراج الاجانب من الحصون التي اخلوها واطفاء شعلة الثورة التي اضرموها

واذ كان الاسرائيليون يسيرونَ جنوباً على شواطئ البحيرات المرة الغربية كما مرّ وقد انهكهم التعب من طول المسافة ولم يعد لهم غيرَ بضع ساعات لاجتياز الشاطئ ودخولهم الصحراء ظهرت لهم في اول الليل طلائع الجيش المصري الاتي من جهة الجنوب الغربي · فارتعدوا وخافوا كثيراً وندموا على خروجهم من ارض جاسان · فطلب موسى من الشيوخ ان يشجعوا الشعب وامرهم بان يجدوا السير ويدخلوا بين الجبل المسمى الان احمد تاشر والبحيرات المرة ليجتازوا ذلك الشاطئ الضيق الواقع بين البحيرات شرقاً والجبل غرباً قبل طلوع الفجر · فصنعوا حسب قول موسى وبلغوا طرف البرية عند الصبح [1]

(١) لقد صرح الكتاب بانّ موسى اخرج بني اسرائيل من مصر وعمرهُ اذ ذاك ٨٠ سنة واتفق جميع المؤرخين بانهُ وُلِدَ في ايام رعمسيس الثاني وان ابنة فرعون التي انتشلته من الماء والتي سماها يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي ترموتيس هيَ ابنةُ رعمسيس ايضاً · ولذلك فلا يصح ان نقول انهُ اخرج العبرانيين في ايام منفتاح الاول لانهُ لو فرضنا انهُ وُلِدَ في اول سنة لملك رعمسيس الثاني واخرجهم في آخر سنة لملك منفتاح الاول — وهذا على الاكثر — فيكون اخرج بني اسرائيل وعمره عندئذٍ ٧٥ سنة فقط وهيَ ٦٧

اماَّ موسى فقد كان يقصد من هذا التعجيل الايقاع بهم في ذلك الممر الضيق اذا هاجموهم وموارات الشعب وراء الجبل لانهم كانوا قد ابتدأوا ان يمروا بسفحهِ الشرقي بينما الجيش المصري الذي كان آتياً من الجنوب الغربي كان مزمعاً ان يمرَّ في سفحهِ الغربي . غير ان الجيش لم يستطع التقدم في تلك الليلة بسبب الريح القوية المعروفة في مصر التي

سنة مدة تملك رعمسيس الثاني و ٨ اعوام مدة تملك ابنهُ منفتاح الاول كما روى واتفق على هذا جميع المؤرخين وهذا لا يمكن ان يكون لانهُ فضلاً عن مخالفته نصّ الكتاب الصريح في هذهِ المسالة فاخراج بني اسرائيل في ايام منفتاح الاول في الوقت الذي كانت فيهِ الدولة في اوج عزها وقوتها و بطشها غير ممكن ايضاً .

اما الارجح لا بل الاصح والذي ينطبق على العقل والعلم معاً فهوَ ان رعمسيس الثاني لم يامر بقتل الاطفال وطرحهم في النيل الاَّ بعد عودتهِ من غزوتهِ سوريا في السنة الرابعة لملكه ولذلك لحيث ان موسى وُلِدَ في ذلك الزمن بعد صدور امر فرعون فلا يمكن ان يكون قد وُلِدَ الاَّ بين السنة الخامسة والسابعة لملك رعمسيس ولا ان يكون اخرج بني اسرائيل الاَّ في اثناء الثورة العظيمة التي انتزع فيها الملك من منفتاح الثاني سفتاح وسلم الى ساتي الثاني لاننا اذا جمعنا المدة التي ملكها رعمسيس بعد ولادة موسى وهيَ ستون سنة والثمانية اعوام التي ملك فيها ابنهُ منفتاح الاول والاثني عشر سنة التي ملك فيها امنازاس وابنهُ منفتاح الثاني سفتاح (كما جاء في جدول مانالثو) كان المجموع ٨٠ سنة وهيَ طبق عدد السنين التي صرح الكتاب بانها كانت عمر موسى لما اخرج الاسرائيليين من مصر

ابتدأت ان تهب في مساء ذلك اليوم فعسكروا عند سفح الجبل وفي اليوم التالي رحلوا في طريقهم قاصدين الحدود بينما الاسرائيليون كانوا قد حلوا في طرف البرية كما مرّ

وبعد وصول المصريين الى الحدود اخذوا يناوشون الاشوريين واستمروا على هذه الحالة مدة طويلة تمكن هولاء في اثنائها من ان يخرجوا من مصر ويرحلو على اسطولٍ كبيرٍ جاء بهِ سكان جزر المتوسط الذين اتوا لنجدتهم · فذهبوا الى اسيا الصغرى واستعمروا بقعة هناك بجوار تُرايا دعوها بابل باسم وطنهم القديم[1]

١٥

« وبعد ان دخل بنو اسرائيل البرية واستراحوا في المكان المسمى الان عيون موسى ارتحلوا من هناك وساروا في برية شور ثلاثة ايام فوصلوا الى مارة حيث الينبوع المسمى اليوم عين حوارة ومنها ارتحلوا الى ايليم التي حقق العلماء ان موقعها في غرندل واحتلوا في الصحراء التي هناك حيث يوجد كثيرٌ من اشجار النخيل ومياه غزيرة خصوصاً في ايام الربيع الوقت الذي خرج فيهِ الاسرائيليون من مصر ·

(١) روى هذا الحادث قيصر كنتو في تاريخهِ مجلد اول صفحة ٩٦

وبعد ان استراحوا في ايليم ارتحلوا منها مجتازين سفح الجبل المسمى الان حمام فرعون وانحدروا في وادي شبيقة وطيبة الى ساحل البحر الاحمر . ثمَّ ارتحلوا من هناك وساروا على شاطىء البحر الاحمر عدة كيلومترات وصعدوا نحو الجبل بوادي فيران فوصلوا بعد شهرٍ من خروجهم من مصر الى برية سين المعروفة الان ببرية المرقى الواقعة بين الجبال شرقاً والبحر غرباً .

وبعد ان استراحوا في برية سين ساروا على شاطىء البحر في جنوبي سهل الرقي حتى بلغوا مصب وادي فيران فصعدوا فيهِ الى رفيديم »[1]

وبلغ رعوئيل خبر خروج الاسرائيلين من مصر فارسل واحداً من غلمانهِ الى البرية ليستطلع مكان احتلالهم . فذهبَ الغلام وعاد واخبرهُ بوجودهم في رفيديم فاخذ ابنتهُ حقورة زوجة موسى واولادها وخرج لملاقاة صهرهِ . اما موسى فلمَّا رأى عمه هشَّ للقائهِ وسجد امامهُ وقبلهُ وسأل كلٌّ منهما عن سلامة صاحبهِ ثمَّ دخلا الخباء واخذ موسى يقصُّ على رعوئيل كلَّ ما حدث لهم منذ خروجهِ من ارض مدين حتى وصولهم الى ارض رفيديم

(١) الاعتماد في كتابة هذهِ الفقرة عن ارتحال بني اسرائيل على ما رواه وكتبهُ العلامة الدبس في المجلد الثاني من تاريخ سوريا صفحة ١٢٤ وما يليها

وفي اثناء هذا الحديث كان افراد الشعب يأتون ويشكون بعضهم البعض الى موسى فكان موسى يقضي بينهم ويصرفهم · واذ رأى رعوئيل ثقل الحمل الذي على عاتق موسى قال لهُ — انك يا ولدي لا تستطيع وحدك القيام بهذا الامر العظيم فيجب ان تنتخب من شيوخ الشعب من يساعدك ويحمل عنك شطر هذا الحمل ·

فقال موسى — انني افكر في هذا ياعماه ولكنني لا استطيع ان اسلّم هذهِ السلطة الى احدٍ قبل ان اكون قد اكملت الامر الذي بنفسي

— وما هو هذا الامر ؟

— هو شريعة اسنها لهذا الشعب لتهذيبهم وترقية اخلاقهم فيعيشوا كاخوةٍ ولا يتسلط القوي غداً على الضعيف ويعيش السواد الاعظم منهم عاملاً تعيساً فقيراً تأكل اتعابهُ وتشرب عرق جبينه فئة قليلة منهُ فقط · لانَّ القتل والجلد والاستبداد والمعاملة الرديئة التي كان يعاملهُ بها المصريون علمت افراده التصلف والعنف والقسوة في معاملة بعضهم البعض بعدما كانوا عائلة واحدة يضمهم جناح الاب وتظللهم المحبة الاخوية ·

فقال رعوئيل — حسن تفعل يا ولدي ولكنني انبهك الى امرٍ مهمٍ جداً وهو انكم غداً ستجاورون امماً كثيرة مختلفة فيجب ان تجعل

للشريعة التي تنوي وضعها قوة كافية لتستطيع ان تحفظ استقلالكم دائمًا فتبقون جسمًا واحدًا ولا تمتزجوا بالامم التي ستجاورونها

فقال موسى — ان هذهِ هي اهم المسائل التي تشغل افكاري الان يا عماه . فانني لا استطيع ان اجعل لهذهِ الشريعة القوة التي ذكرتها ما لم اجعل لهذا الشعب ميزةً على الشعوب الاخرى وهذا لا يسلّم بهِ عقلي وضميري لانّ الجميع اخوة ومساوون لبعضهم البعض وعلى ما اري ان العناية اوجدت للناس ابًا واحدًا وامًّا واحدة لئلاَّ يقوم بينهم من يقول بحقٍ انا اعرف حسبًا واشرف نسبًا

فقال رعوئيل — ان امامك يا ولدي غير هذه الجهة الضيّقة التي تنظر اليها . امامك عظمة التاريخ ومجده ُ الذي يربط افراد الامة الواحدة ببعضهم رباطًا حقيقيًا ويحفظ استقلالهم

— صدقتَ صدقتَ يا عماه ان مجدنا التاريخي هو اقوى واحسن اساس نبني عليهِ استقلالنا . انني سافعل برأيك

وهكذا اقام رعوئيل عند موسى شهرًا من الزمان يباحثه ُ في كثيرٍ من شؤون الاسرائيليين ثمّ ارتحل الى ارضهِ وعشيرتهِ وموسى امر قومه ُ بالنهوض ورحلوا من رفيديم بعد ان اقاموا هناك نحو شهرين من الزمان

١٦

وبعد ان ارتحل بنو اسرائيل من رفيديم ساروا في شمالي وادي فيران فوصلوا الى برية سيناء مساءً فامرهم موسى ان يحلوا تلقاء الجبل المسمى الان جبل موسى في سهل الراحة الفسيح الارجاء الواقع في الشمال الغربي من قمتهِ الثانية المسماة الان رأس الصفصافة لانهُ رأى ان المكان حسنٌ ومناسب لاقامة الشعب فيهِ مدةً ليستطيع في اثنائها ان يبرز مشروعهُ الى حيز الوجود ·

اما هذهِ البرية فهيَ شبه جزيرة الان يحدها خليج السويس غربًا والبحر الاحمر جنوبًا وخليج عقبة شرقًا وتتصل ببلاد العرب شمالاً وهيَ ليست صحارى تعلوها الرمال بل بلاد جبليّة متحجرة ليس فيها من الرمل الاّ ما ندر · وتربتها غير خصبة والنبات فيها قليل الاّ في بعض الاودية والهضاب حيث تكثر الاعشاب العطرية وليسَ على آكامها تراب ولا خضرٌ · والماء قليل في اوديتها الاّ في ايام الربيع · وسماؤُها نقية ولكن شمسها محرقة جدًا حتى تزيد فيها الحرارة مدة النهار ثلاثين درجة عليها مدة الليل ·

وبعد ان حلّ الاسرائيليون تلقاء الجبل وباتوا ليلتهم هناك نهضوا في الصباح وابتدأُوا يشاهدونَ امامهم منظرًا مدهشًا لم يكونوا

يرونه من قبل · ذلك ان قمتي الجبل الشاهقتين عندما بزغت الشمس من ورائها اخذتا تدخنان من تأثير حرارتها على الرطوبة كما يشاهد هذا على قمم لبنان ايضاً فدهشوا من هذا المنظر وظنوا انهُ دخانٌ حقيقي وتجمهروا في فسحات المحلة يتباحثون ويتساءلون عن سبب ذلك وكيفيّة ذهابه قبل بلوغ الشمس رابعة النهار · وبقوا على هذهِ اياماً دون ان يدركوا كنه هذه المسألة الطبيعيّة البسيطة

واذ رأى موسى عظم اشتياقهم الى معرفة هذهِ المسألة جمع شيوخ الشعب واخبرهم بانهُ ينوي الصعود الى الجبل ليتحقق ذلك عن قريب ويعودَ اليهم عاجلاً وامرهم بان يقضوا للشعب بالعدل والانصاف وان لا يدعوا احداً يتبعهُ

امّا موسى في الحقيقة فلم يكن يجهل ماهيّة ذلك الدخان لانهُ كان يشاهدهُ كلّ يومٍ مدة اربعين سنة عندما كان راعياً لغنم حميهِ رعوئيل · ولكنهُ اغتنم تلك الفرصة واندهاش الشعب بذلك المنظر واراد ان يوضح لهم الحقيقة بطريقة يتخذها واسطة لابراز الامر الذي في نفسهِ · وهكذا صعد الى الجبل على مشهدٍ منهم وبعد برهة توارى عن اعينهم

وكانَ للجبل قمتان شامختان الاولى واقعة الى الجنوب وتعلو عن سطح البحر نحو الفي متر وتسمى الان باسم الجبل كلّهُ — اي موسى —

والثانية واقعة في الشمال الغربي وتعلو عن سطح البحر نحو الفي متر ونيف وتسمى الان رأس الصفصافة وهيَ التي صعد اليها موسى

غير ان موسى لم يبلغ رأس القمة بل لم يصعد الاَّ الى منتصف الجبل فقط حيث دخلَ الى مغارةٍ كبيرةٍ هناك يتخذها الرعاة احيانًا ملجأً في الحر والشتاءِ واقام هناك نهارًا ثمَّ انحدر الى المحلة

وكان الوقت عندئذٍ مساء فاجتمع عليهِ شيوخ الشعب ومتقدموه وسألوه عن سلامتهِ وعمَّا رأى على الجبل

فقال لهم موسى — صعدتُ من هنا وقلبي يضطرب خوفًا فلمَّا وصلتُ الى حيث الدخان سمعتُ اصواتًا هائلة رعودًا وبروقًا وعصيف رياحٍ قوية ثمَّ سمعتُ صوتًا يقول لي تقدم يا موسى · فاضطربتُ وقلتُ الى اين يا سيدي ؟ فاجابني الصوت وقال — الى رأس هذهِ القمة · فتقدمتُ رويدًا رويدًا وكنتُ اشاهد اللهيب في وسط الدخان حتى وصلتُ الى قمة الجبل فقال لي الصوت ثانيةً · انا مقيمك يا موسى قائدًا ورئيسًا لهذا الشعب · فقلتُ ومن انت يا سيدي ؟ فقال · انا هو يَهوَه اله ابائك ابرهيم واسحق ويعقوب · انا الذي حملتكم على اجنحة النسور واتيتُ بكم الى هذا المكان فاسمع وافهم ما انا قائلهُ لك الان · فقلتُ : وماذا تريد ايها السيّد القدوس ؟ فقال لي · ان انتم حفظتم عهدي ووصاياي وعملتم باوامري فانني اكون لكم الهًا

وتكونون لي شعباً خاصاً من بين شعوب الارض · وارسل سطوتي على اعدائكم وابيدهم من امام وجوهكم · فقلتُ — وما هي هذه الوصايا يا سيد ؟ فقال — انني موضح لكم هذه الوصايا فيما بعد · انحدر الان الى هذا الشعب وقدسهُ وليكونوا متعبدين لليوم الثالث

فلمَّا سمع شيوخ الشعب ومتقدموهُ كلامهُ قالوا إننا عبيدٌ للرب القدوس فلتكن مشيئتهُ لانهُ من يخالف كلام الهنا ويحيا بعد · ولم تغرب الشمس حتى علم جميع بنو اسرائيل بما صنعهُ موسى وكيف ان الله كلّمهُ من على الجبل

١٧

وبكر موسى في صباح اليوم الثالث ودعا اليهِ غلاماً لهُ يدعى يشوع وقال لهُ — خذ الامتعة وما نحتاج اليهِ من الزاد الى مغارة الجبل

فقال يشوع — لقد اخذتها يا سيدي بعد مرور الهزيع الثاني من الليل

فقال موسى — هلمَّ اذن واتبعني لنصعد الى هناك فانني ذاهبٌ قدامك الان لاضع حدوداً للشعب لئلا يقتحموا

فقال يشوع – وما ادرانا يا سيدي انهم لا يلحقونا اذا طالت عليهم مدة إنتظارنا ؟

فقال موسى – انني فكرت في هذا باولدي وتدبرتهُ منذ امس

فقال يشوع ليسمح لي سيدي فاتكلم هذهِ المرة ولا يثقل عليك . ان الانسان لا يستطيع ان يسلم بما يعرض عليهِ وبما يحدث لهُ الاَّ بعد ان يوفق بين هذا وبين العقل . فهل يأْمن سيدي على العمل الذي سيقدمهُ للشعب من هذهِ الحيثيَّة ؟

فقال موسى – ان قولك يا ولدي حقيقي . ولكن هذا التوفيق الذي ذكرتهُ له في جميع الامم طريقتان الاولى يظهر فيها العقل آمرًا وسيدًا فلا يصغى الى ما يعرض عليهِ الاَّ اذا كان حقيقة متجلية بابهى مظاهرها وعارية عن كلّ السفسطات والزخرفات التي تسترها . والثانية يظهر فيها العقل ضعيفًا ومنحطًّا اذ تقبض عليهِ العاطفة بيدين حديدتين وتخضعه لسلطانها فينقاد الانسان اولاً الى كلّ شيء موافقًا لاهوائهِ وحاجاتهِ ثمَّ يجبر العقل على التسليم بذلك بدون شرط . واذا نظرنا الى اية الطريقتين يعمد شعبنا في التوفيق بين ما ساعرضهُ عليه وبين عقلهِ رأَينا ان الطريقة الثانية هيَ التي يميل اليها اذ فضلاً عن انهُ الفها وان الطريقة الاولى قلَّما نرى انسانًا في هذهِ الحياة معتمدًا عليها فان العمل الذي ساقدمهُ لهُ ينطبق كثيرًا على حاجاتهِ واهوائهِ

فانذهل بشوع من كلام موسى وقال — وهل يجوز لنا يا سيدي ان نموه على الحقيقة ونغش الناس ؟

— آه يا ولدي . لقد القيتُ قبلك هذا السؤال على رئيس الكهنة عندما كنتُ متلمذًا لهُ وكنت ارى نفس ما تراهُ انتَ الان . امَّا اليوم يا ولدي فلم اعد ارى ان اظهار الحقيقة واجبٌ في جميع الاحوال كما انني لا ارى كتمها جائزًا ايضاً . ان الحقيقة كالجوهرة فلا يجب ان تعرض على من يرى الزجاج والماس سيَّين بل كالدواء الذي يخبأُ لحين الحاجة وحين يكون استعمالهُ نافعاً والاَّ فاذا استعمل في غير موضعهِ وحينهِ اضرَّ . ولكن مع هذا يجب ان نسعى جهدنا في ايصال الحقائق الى الناس بطرقٍ سليمة مفيدة ولا بأس عندئذٍ من استعمال بعض الوسائط التي يميلون اليها لانَّ الصبر اذا لم يمزج بحلاوة الامل الذي كثيرًا ما يكون باطلاً لم يستطع احدٌ احتمالهُ .

واذ ذاك سكتَ موسى قليلاً ثمَّ رفع رأْسه الى غلامهِ وقال — هيَّا بنا يا ولدي الان وستكون معي دائمًا واوضح لك كلَّ شيء

ثمَّ قاما وانطلقا

وكان الشعب قد ابتدأ بالتجمهر عند سفح الجبل منذ الصباح فلما وصل موسى لاقاه الشيوخ وقالوا — اننا جئنا حسبما امرك الرب الهنا فماذا تريد ان نصنع الان ؟

فقال موسى — هكذا امرني الرب ان لا يقتحم احدٌ منكم الجبل ولا يمسهُ ولا يصعد ورائي وكلّ من مسهُ موتاً يموت

فقالوا — اننا لا نحيد عمّا امرك بهِ الربّ لا يميناً ولا شمالاً ·

وكانت الشمس قد بزغت والجبل قد ابتدأ يدخن فتقدم موسى من اخيهِ واسرَّ اليهِ كلمة صغيرة ثمَّ امرَ الشعب بانْ يطيع روساءه ومدبريه وصعد واخذ معهُ خادمهُ يشوع اما الشعب فلبث هناك حتى المساء ثمَّ عاد الى المحلة

وطالت مدة غيبة موسى على الجبل وملَّ الشعب انتظارهُ فجاؤوا الى اخيهِ هارون وقالوا لهُ اين صاحبنا موسى الرجل الذي اصعدنا من مصر ؟ هل مات على الجبل ؟ دعنا نصعد الى هناك ونرى ماذا حدث لهُ !

فقال لهم هارون — كلاَّ لا تصنعوا هذا لانهُ اذا كان حقيقة الربّ هو الذي دعاه اليهِ فسيعود الينا سالمًا ولا موجب لمخالفة ما امرنا بهِ · وان لم يكن الرب قد دعاه وكان قد هلك فيالنا ولهُ ·

وكان موسى قد لقن هارون هذا الكلام عندما اسرَّ اليهِ الكلمة الصغيرة قبل صعودهِ · فسكت الشعب يومئذٍ ثم عادوا اليهِ ثانيةً وقالوا لهُ — والى متى هذا الانتظار ؟ ! ان نفوسنا قد سئمت هذهِ الحالة وها قد انقضى على خروجنا من مصر اكثر من ثلاثة اشهرٍ دون

ان نقيم عيداً او نرفع محرقة · مع اننا في مصر كنا نشهد اعياد المصريين على الاقل ونسرّ ونفرح معهم خصوصاً في مثل هذه الايام اذ كانوا يقيمون عيد ابيس ·

فقال هارون — لماذا تتذمرون عليّ · ان غداً عيد لكم فسروا وافرحوا

فقالوا لهُ — اننا نريد ان نعيد كالمصريين وليس لنا تمثال لنجتمع حولهُ ونفرح بهِ

فقال هارون — اجمعوا لي بعض ما معكم من الذهب وانا اصنع لكم تمثالاً كذلك

فاستحسنوا رأيه وذهبوا فجاءوا لهُ بكثيرٍ من اقراط الذهب التي في آذانِ نسائهم واولادهم

وكان للمصريين عيدٌ يدعى عيد ابيس يقيمونه في آخر ايام الحصاد عندما يجمع القمح عن البيدر ويخزن ويحتفلون بهِ احتفالاً شائقاً مدة سبعة ايام فيخرجون في اليوم الاول تمثال ابيس — العجل — الى الحقل ويقيمون الولائم والافراح اكراماً لهُ ثمَّ في اليوم السابع يرجعونهُ الى الهيكل · وكان ذلك عندهم رمزاً عن استراحة هذا الحيوان من العمل [1]

(1) روي هذا المؤرخ قيصر كنتو في تاريخهِ مجلد اول صفحة ٤٩٨ وكان

اما هارون فبعد ان جمع اقراط الذهب اعطاها الى صوّاغ ماهرين فصنعوا منها تمثال عجلٍ صغير[1] فاخذهُ هارون ونصبهُ في وسط المحلة وابتدأ الشعب يعيد لهُ فكانوا يرقصون حولهُ وينفخون بالابواق ويضربون على الدفوف

وسمع يشوع من على الجبل صراخ الشعب ونفخ البوق فقال لموسى — لا اعلم يا سيدي ماذا حدث في المحلة ! انني اسمع الصراخ قوياً جداً . فهل هو يا ترى صراخ النصرة ام الكسرة ؟

فاوجس موسى خيفةً من هذا الامر وقال ليشوع — كفى يا ولدي ما انهيتُ من عملي فقد طال تعبنا وها لنا نحو اربعين يوماً هنا . هيّاً بنا نحدر لنشاهد ماذا حدث . ثمَّ قاما ونزلا الى المحلة وكان موسى يحمل في يدهِ لفافة من الرقّ وصفيحتين من الحجر

ولمّا وصلا الى وسط المحلة شاهد موسى الشعب على الحالة المتقدمة يصفق ويرقص ويطرب فغضب وتقدم من التمثال وضربهُ بالصفيحتين على رأسهِ فانكسرتا ثمَّ اخذهُ وصهرَهُ بالنار . وقد صنع موسى هذا كلّهُ ولم يجسر احدٌ من الشعب ان يعترضهُ

---

[1] المشترع موسى لما راى رغبة الاسرائيليين وميلهم الى هذا العيد وضع لهم بمثابتهِ عيد المظال

١٨

وفي اليوم التالي وقف موسى بباب المحلة وقال من كانَ للرب فليأتِ اليَّ . فاجتمع حوله اولاً اللاويون ثمَّ كثيرٌ غيرهم من الشعب . فقال لهم موسى — لقد اخطأتم خطيئة عظيمة يا بني اسرائيل باتخاذكم الهًا مسبوكاً صنع ايديكم فاسمعوا الآن ما هيَ الوصايا التي امرني الرب ان اعلمكم اياها لتحفظوها وتكونوا لهُ نسلاً خاصاً من بين شعوب الارض . فاصغى جميع الشعب وارتفعت ابصارهم نحوهُ . امَّا موسى فبعد ان سكتَ واجال طرفهُ فيهم قال —

هكذا يقول يهوه السيّد فاسمع يا اسرائيل . « انا هو الربُّ الهك الذي اخرجك من ارض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهةٌ اخرى امامي . لا تصنع لك تِمثَالاً منحوتاً ولا صورةً ما مِما في السماء من فوق وما في الارض من تحتُ وما في الماء من تحت الارض لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ لاني انا الرب الهك الهٌ غيورٌ افتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واصنع إحساناً الى الوفٍ من محبيَّ وحافظي وصاياي َ. لا تنطق باسم الرب الهك باطلاً لانَّ الرب لا يبرىء من نطق باسمهِ باطلاً . اذكر يوم السبت لتقدسهُ . ستة ايامٍ تعمل وتصنع جميع عملك وامَّا اليوم السابع ففيهِ

سبتٌ للرب الهك لا تصنع عملاً ما انتَ وابنك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل ابوابك لان في ستة ايامٍ صنع الربّ السماء والارض والبحر وكلّ ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الربُّ يومَ السبتِ وقدسهُ ١٠ اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الهك . لا تقتل . لا تزنِ . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زورٍ . لا تشتهِ بيت قريبك لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا امتهُ ولا ثورهُ ولا حمارهُ ولا شيئًا مما لقريبك »

وبعد ان فرغَ موسى من هذهِ الوصايا فتح لفافة الرقّ التي انزلها معهُ من على الجبل واخذ يتلو ايضاً على مسامع الشعب كثيرًا من الوصايا والاوامر والمناهي (١) والشعب يصغي بارتياحٍ الى كلامهِ . وعندما

(١) هذهِ هيَ الوصايا والشريعة التي وضعها موسى « اذا اشتريتَ عبدًا عبرانياً فستّ سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرًّا مجانًا ان دخلَ وحدهُ فوحده يخرج . ان كان بعل امرأةٍ تخرج امرأتهُ معهُ . ان اعطاه سيده امرأةً وولدت لهُ بنين او بنات فالمرأة واولادها يكونون لسيدهِ وهو يخرج وحدهُ ولكن ان قال العبد احبُّ سيدي وامرأتي واولادي لا اخرج حرًّا يقدمهُ سيده الى الله ويقربهُ الى البابِ او الى القائمة ويثقب سيدهُ اذنه بالمثقب فيخدمهُ الى الابد .

واذا باعَ رجلٌ ابنته امةً لا تخرج كما يخرج العبدُ · ان قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسهِ يدعها تفكّ وليس لهُ سلطان ان يبيعها لقومٍ اجانب لغدرهِ بها وان خطبها لابنهِ فبحسب حقّ البنات يفعل لها · ان اتخذ لنفسهِ اخرى لا ينقّص طعامها وكسوتها ومعاشرتها وان لم يفعل لها هذهِ الثلاث تخرج مجانًا بلا ثمنٍ

من ضربَ انسانًا فمات يقتل قتلاً · ولكن الذي لم يتعمد بل اوقع الله في يدهِ فانا اجعل لهُ مكانًا يهرب اليه · واذا بغى انسانٌ على صاحبه ليقتله بغدرٍ فمن عند مذبحي تأخذهُ للموت ومن ضربَ اباه او امهُ يقتل قتلاً · ومن سرق انسانًا وباعهُ او وجدَ في يدهِ يقتل قتلاً ومن شتم اباهُ او امهُ يقتل قتلاً · واذا تخاصم رجلانِ فضربَ احدهما الاخر بحجرٍ او بلكمةٍ ولم يقتل بل سقط في الفراش فان قامَ وتمشى خارجًا على عكازهِ يكون الضارب بريئًا الاّ انه يعوض عطلتهُ وينفق على شفائه · واذا ضرب انسانٌ عبدهُ او امتهُ بالعصا فماتَ تحت يدهِ ينتقم منهُ لكن ان بقيَ يومًا او يومين لا ينتقم منهُ لانهُ مالهُ · واذا تخاصم رجالٌ وصدموا امرأةً حبلى فسقط ولدها ولم تحصل اذيةٌ يغرم كما يضع عليهِ زوج المرأة ويدفع عن يدِ القضاة · وان حصلت

اذية تعطى نفساً بنفسٍ وعيناً بعينٍ وسناً بسنٍّ ويداً بيدٍ ورجلاً برجلٍ وكيًّا بكيٍّ وجرحاً بجرحٍ ورضاً برضٍّ · واذا ضرب انسان عين عبده او عين امته فاتلفها يطلقهُ حرًّا عوضاً عن عينه · وان اسقط سنّ عبده او سنّ امته يطلقهُ حرًّا عوضاً عن سنه

واذا نطح ثورٌ رجلاً او امرأةً فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمهُ واما صاحب الثور فيكون بريئاً · ولكن ان كان ثوراً نطاحاً من قبل وقد أُشهد على صاحبه ولم يضبطهُ فقتل رجلاً او امرأةً فالثور يرجم وصاحبهُ ايضاً يقتل · ان وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه كل ما يوضع عليه · او اذا نطح ابناً او ابنةً فبحسب هذا الحكم يفعل به · ان نطح الثور عبداً او امةً يعطي سيده ثلاثين شاقل فضةٍ والثور يرجم · واذا فتح انسان بئراً او حفر انسان بئراً ولم يغطها فوقع فيها ثورٌ او حمار فصاحب البئر يعوض ويردّ فضةً لصاحبه والميت يكون لهُ · واذا نطح ثور انسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحيّ ويقتسمان ثمنه والميت ايضاً يقتسمانه · لكن اذا عُلم انه ثورٌ نطاح من قبل ولم يضبطه يعوض من الثور بثورٍ والميت يكون لهُ

اذا سرق انسانٌ ثوراً او شاةً فذبحه او باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة باربعة من الغنم ٠ ان وُجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليسَ لهُ دمٌ ولكن ان اشرقت عليه الشمس فلهُ دمٌ انه يعوض ان لم يكن لهُ يبع بسرقته ٠ ان وجدت السرقة في يده حيةً ثوراً كانت ام حماراً ام شاةً يعوض باثنين

اذا رعى انسانٌ حقلاً او كرماً وسرح مواشيه فرعت في حقل غيره فمن اجود حقله واجود كرمه يعوض ٠ اذا خرجت نارٌ واصابت شوكاً فاحترقت اكداسٌ او زرعٌ او حقل فالذي اوقد الوقيد يعوض ٠ اذا اعطي انسانٌ صاحبه فضةً او امتعةً للحفظ فسرقت من بيت الانسان فان وجد السارق يعوض باثنين وان لم يوجد السارق يقدَّم صاحب البيت الى الله ليحكم هل لم يمدّ يدهُ الى ملك صاحبهِ ٠ في كل دعوى جنايةٍ من جهة ثورٍ او حمارٍ او شاةٍ او ثوب مفقودٍ ما يقال. ان هذا هو تقدم الى الله دعواهما فالذي يحكم الله بذنبهِ يعوض صاحبه باثنين ٠ اذا اعطى انسانٌ صاحبه حماراً او ثوراً او شاةً او بهيمةً ما للحفظ فماتَ او انكسر او نهبَ وليسَ ناظرٌ فيمين الله تكون بينهما هل لم يمدّ يدهُ الى ملك صاحبهِ فيقبل صاحبهُ فلا يعوض٠ وان سرق من

عندهِ يعوض صاحبهُ . ان افترس يحضرهُ شهادةً لا يعوض عن المفترس وان كان صاحبهُ معهُ لا يعوض . ان كان مستأجرًا اتى باجرتهِ

اذا راود رجلٌ عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسهِ زوجةً . ان ابى ابوها ان يعطيه اياها يزنُ لهُ فضةً كمهر العذارى . لا تدع ساحرةً تعيش . كل من اضطجع مع بهيمةٍ يقتل قتلاً . من ذبح لآلهة غير الربّ وحدهُ يهلك

لا تضطهد الغريب ولا تضايقهُ لانكم كنتم غرباء في ارض مصر . لا تسئ الى ارملةٍ ما ولا يتيم ان اسأت اليه فاني ان صرخ اليَّ اسمع صراخهُ فيحمى غضبي واقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم ارامل واولادكم يتامى . ان اقرضت فضةً لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكون لهُ كالمرابي لا تضعوا عليه ربًا . ان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس تردهُ لهُ لانه وحده غطاؤه هو ثوبه لجلدهِ في ماذا ينام فيكون اذا صرخ اليَّ اني اسمع لاني رؤوف

لا تسبّ الله لا تلعن رئيسًا في شعبك لا تؤخر ملء بيدرك وقطر معصرتك وابكار بنيك تعطيني . كذلك تفعل ببقرك وغنمك

سبعة ايام يكون مع امه وفي اليوم الثامن تعطيني اياه وتكونون لي اناساً مقدسين ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوا للكلاب تطرحونه

لا تقبل خبراً كاذباً ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم لا تتبع الكثيرين الى فعل الشرّ ولا تجب في دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف ولا تحابِ مع المسكين في دعواه · اذا صادفت ثور عدوك او حماره شارداً ترده اليه واذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلا بدّ ان تحلّ معه · لا تحرف حقّ فقير في دعواه · ابتعد عن كلام الكذب ولا تقتل البريء والبار لانني لا ابرر المذنب ولا تأخذ رشوة لانّ الرشوة تعمي المبصرين وتعوج كلام الابرار ولا تضايق الغريب لانكم عارفون نفس الغريب لانكم كنتم غرباء في ارض مصر · ستّ سنين تزرع ارضك وتجمع غلتها · واما في السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك وفضلتهم تأكلها وحوش البرية · كذلك تفعل بكرمك وزيتونك · ستة ايام تعمل عملك واما اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن امتك والقريب

ثلاث مرات تعيد لي في السنة تحفظ عيد الفطير تأكل فطيراً

بالوباءِ والسيف ويسلط عليكم اعداءكم فيستعبدونكم و يذلونكم

امّا الشعب فبعد ان تلقى هذهِ الوصايا بسرور انصرف كلٌّ منهم الى خبائهِ

١٩

وبعد ان اذاع موسى الشريعة والوصايا كما مرَّ · دعى اليهِ اخاه هارون وقال له — لماذا صنعت هكذا ونصبتَ للشعب تمثالاً مسبوكاً ؟

فقال هارون — وما حيلتي يا اخي والشعب ميّالٌ الى عوائد المصريين وتقليدهم في كثيرٍ من اعمالهم واحتفالاتهم التي كان يشهدها في مصر ولم يكن ليستطيع ان يشاركهم فيها هناك بسبب ضغط

سبعة ايامٍ كما امرتك في وقت شهر ابيب لانك فيه خرجت من مصر ولا يظهروا امامي فارغين · وعيد الحصاد ابكار غلاتك التي تزرع في الحقل وعيد الجمع في نهاية السنة عندما تجمع غلاتك من الحقل · ثلاث مراتٍ في السنة يظهر جميع ذكورك امام السيد الرب لا تذبح على خميرٍ دمَ ذبيحتي ولا يبت شحم عيدي الى الغد اول ابكار ارضك تحضرهُ الى بيت الربّ الهك لا تطبخ جدياً بلبن امهِ » (الخروج الاصحاح ٢١ و ٢٢ و ٢٣)

الشرائع المصرية

فقال موسى — ولكن الا تعلم يا اخي ان تقليدنا للمصريين ربما جرّنا الى تقليد الامم المجاورة لنا حالياً وسهل علينا وعليهم الائتلاف والاندغام الامر الذي ينبغي ان نتلافاه منذ الان لئلاً نندغم بغيرنا ونفقد عصبتنا وجامعتنا الجنسيّة التي حافظنا عليها في مصر نحو اربعمائة سنة ونيف بفضل شرائعها !

فقال هارون — وما هيَ الغاية التي تتوخاها من وراء هذهِ العصبة والجامعة ؟

فقال موسى — هو اعداد هذا الشعب لأن يكون امة عظيمة وكفوءًا للاستقلال بمملكةٍ خاصة بهِ

فقال هارون — وهل فكّرتَ جيدًا بماذا يقوم هذا الامر الذي تتوخاهُ ؟

فقال موسى — على ما ارى يجبُ (اولاً) ان تُوحَّد كلمة هذا الشعب لكي يستطيع بالاتحاد ان يؤلف قوة هائلة تقف في وجوه اعدائهِ غدًا (ثانياً) ان تحفظ جامعتهُ لئلاً يمتزج غدًا بالامم التي ابتدأ ان يجاورها (ثالثاً) ان تؤخذ هيأة لحكومتهِ يأمن معها من المنازعات والانقسامات بسبب الرئاسة (رابعاً) ان تصرف افكارهُ الى ارضٍ ما صالحة اسكناه يستحوذ عليها بعدئذٍ لئلاً يميل الى المعيشة البدوية

ويألفها ومن ثمَّ يضطر الى الانحلال والتفرق شأن جميع القبائل الرحالة

فقال هارون — وكيف عولت ان تصنع بازاء هذا ؟

فقال موسى — لقد عولتُ (اولاً) على اعلان الحرية للجميع ومساواتهم امام الشريعة لكي يرضخوا لاحكامها (ثانياً) على وضع حواجز وامتيازات بينهم وبين الامم التي ابتدأوا ان يجاوروها لكي تحفظ جامعتهم اذ يرون ذواتهم عندئذٍ اسمى من مجاوريهم من الامم (ثالثاً) على اطلاع هذا الشعب على دقائق شرائعهِ وعدم كتم شيء عنه لكي ينصرف الى اشيائهِ الوطنية عما هو للغرباء ولا يقتدي بهم (رابعاً) على نسبة كلّ الوصايا والاوامر التي القيتها وسالقيها عليهِ الى مصدرٍ سامٍ لكي يحترمها (خامساً) على تعيين بقعة كنعان التي عاش بها اجدادنا قبل انحدارهم الى مصر ارضاً ليقيموا مملكتهم فيها لانها خير بقعة نستطيع ان نغتنمها الان بسبب ضعف سكانها من جراء النزاع الطويل الذي قام بين الدولتين المصرية والحثيّة ومن جراء منازعتهم بعضهم البعض السيادة والسلطة

فقال هارون — ان جميع ما قلتهُ وعولتَ عليهِ جميلٌ وحسنٌ . ولكن هذا الجمال والحسن سيزولان بعد مدةٍ ويزول معهما العمل الذي ستؤسسهُ عليهما

فانذهل موسى من هذه الكلمة وقال — ولماذا ؟!

فقال هارون — ان الانسان يا اخي لا يسلم بما يعرض عليه الا بعد ان يكون قد وفق بينه وبين العقل لكنه بازاء هذا التوفيق نراه اما مستسلماً الى العاطفة مندفعاً كالسيل مع امياله واهوائه . واما مصغياً لصوت الضمير والعقل يختبر الاشياء بحكمةٍ حتى تبدو له واضحة فيميز بين صالحها وفاسدها . واما ذاهباً مع التأثيرات الخارجية حيث يكون في هذا المجموع كخشبةٍ طافية على وجه الماء يدفعها التيار طوراً الى هذا الجانب وتارة الى ذاك .

لكننا مع هذا نراه في حالتهِ الثانية لا ينظر الاَّ الى الحقيقة مهتماً بالجوهر دون القشور وبما ينطبق على حاجاتهِ وحالتهِ لا على امياله واهوائهِ وفي حالتيهِ الاولى والثالثة ينظر الى قشور ما يعرض عليهِ فان اعجبته بهرجتها الخارجية وانطبقت على اهوائهِ وامياله سلَّم بها بدون شرط ثمَّ ابتدأ يطبق ذلك على العقل ويزينه له [1] . واذا نظرنا الى شعبنا بازاء ما عرضتهُ عليهِ بالامس وبازاء العمل الذي عولت عليهِ وكيف يوفق بينه وبين العقل وجدنا معظمه من الطبقة الاولى وباقيهِ من الثالثة اللتين تنظران الى القشور ولا يهمهما الاَّ ان يكون ما عرضَ عليهما منطبقاً على اهوائهما واميالهما فقط ولذلك قلتُ لك ان ما قلتهُ وعولتَ عليهِ جميل ولكن جماله لا يدوم ويضمحل لان ليسَ

(١) هذا الراي للفيلسوف تولوستوي انظر كتابه (ما هو الدين)

فيه ما ينطبق على اهواء هذا الشعب واميالهِ · ولو كان كلهُ او اكثرهُ من اصحاب الفئة الثانية التي لا تسلم الاَّ بعد التحري والبحث وتسليم العقل والتي لا تهتم بالظواهر بل بالجوهر والحقيقة وبما ينطبق على حالتها وحاجاتها لكان ما اذعتهُ بالامس وما عولتَ عليهِ كافياً وحدهُ لضم الاسرائيليين الى بعضهم البعض وجعلهم امة عظيمة واعدادهم لأَن يكونوا كفوءًا للاستقلال بانشاء مملكة واسعة خاصة بهم

فابتسم موسى عندئذٍ ابتسامة الاعجاب ببعد مرمى افكار اخيهِ وقال لهُ — وماذا ترى من الموافق ان اصنع ؟

فقال هارون — حسنٌ ان تدعم العمل الذي تنويهِ بشيءٍ من تقاليد هذا الشعب وعوائدهِ التي يقدسها لكي تجعله معتبراً ومحترماً في عينيه وان تضيف الى ذلك شيئاً من تقاليد المصريين وعوائدهم التي يميل اليها الشعب ويهواها ولا تغيِّر شيئاً من جوهره بل تزيده رونقاً وجمالاً

فقال موسى — ان دعم العمل الذي اعملهُ بشيءٍ من تقاليدنا مستطاعٌ واماَّ بشيءٍ من عوائد المصريين فغير مستطاع

فقال هارون — ولماذا ؟ ! · انك كما استطعتَ ان تاخذ الفضائل فقط من فلسفة المصريين وشرائعهم (١) كذلك تستطيع ان تضيف

(١) سيرى القارىء في اخر هذه الرواية تفصيلاً مطولاً في هذا الموضوع ومقابلةً بين تعاليم موسى وشرائعهِ و بين الفلسفة والشرائع المصرية ·

اليها ايضاً شيئاً من عوائدهم وتقاليدهم التي لا تؤثر في جوهرها البتة والاً ذهبَ كلّ عملك عبثاً

وكان هارون يتكلم ودلائل الافتكار والتأمل تلوح على وجه موسى فلمّا انتهى قال — وما هيَ تقاليد المصريين وعوائدهم التي يميل اليها هذا الشعب ؟

فقال هارون — انتَ اعلم بذلك من سواك

فقال موسى — اذا كنتُ اعرف تقاليد المصريين وعوائدهم فلستُ اعرف ايتها التي يحبها هذا الشعب !

فقال هارون — اذا نظرنا الى الانسان منذ اقدم عهده حتى الان لم نرَهُ عاش او يعيش بدون رابطة بينهُ وبين الحياة السرمدية المحيطة به . ولذلك ارى من المناسب ان يدعم العمل الذي عملتهُ برابطة كهذه تتخذ صورتها من تقاليد المصريين وعوائدهم التي يهواها الشعب ويحبها والتي يزعم ويظن انها في الحقيقة تربطهُ بالحياة السرمدية

فقال موسى — انني الى الان لم افهم بعد ايّة هي التقاليد التي تعنيها ؟

فقال هارون — لنضع لهم هيكلاً كهياكل المصريين وكهنة ككهنتهم

فقال موسى — لا . لا ترتكب هذا الغلط يا اخي . اننا تعبنا

جهدنا وخاطرنا بارواحنا حتى خرجنا من مصر وتخلصنا من العبودية فهل تريد الان ان يستعبد هذا الشعب بعضهُ البعض بايجاد طبقة كهنوتية فيهِ ؟ اتجهل ما لكهنة مصر من السيادة والسلطة وخضوع الشعب الاعمى لهذهِ الطبقة ؟ ومع هذا الا تعلم ان هذا ربما جرَّنا الى الاختلاف والتعصب وضعف الجامعة وانحلال الرابطة

فابتسم هارون عندئذٍ وقال — وهل فكرت كيف يجب ان تكون هيأة الحكومة التي يأمن معها الشعب من الانقسامات والتحزب بسبب الرئاسة ؟

فقال موسى — كلاَّ انني لم افكر في هذا الامر بعد .

فقال هارون — اصغِ اليَّ اذن . ان انفصال السلطتين المدنية والدينية في مصر عن بعضهما البعض وتساهل امراء مصر مع الكهنة ورؤساء الكهنة وتزلفهم اليهم ورفعهم منزلتهم واعتبارهم للغايات السياسيَّة كما تعلم وعدم تقييد كلٍّ من السلطتين بشريعةٍ عادلة وجهل الشعب ماهيَّة الشرائع التي وضعت لهُ دينية كانت ام مدنية والحقوق التي تخولهُ اياها وعدم جرأتهِ على المطالبة بحقوقهِ هو الذي يجعل الحالة في مصر من هذا القبيل على الشكل الذي اشرتَ اليهِ . اما اذا اقمتَ لهذا الشعب معبداً فخماً ورتبتَ لهُ كهنته وحصرتَ هذهِ الطبقة في سبطٍ واحدٍ من اسباط اسرائيل وجعلت في يدها السلطتين

الدينية والمدنية ولكن بحيث تكون هيَ ايضاً ضمن دائرة الشريعة كباقي افراد الامة ومقيدة بها لا تستطيع الخروج عن الحدود الموضوعة لها وابحثَ الشريعة ومعرفة اسرارها للشعب ليعلم ما يُطلَب منه ولهُ · هذا مع ابقاء الرئاسة والسيادة والسلطة المطلقة ليَهْوَه · اظنّ ان هذا يكون خير هيأة نتخذها للحكومة والسلطة التي تنويها وتريد ان يأمن معها الشعب من التحزبات والانقسامات بسبب الرئاسة وخير صورة ننسخها عن التقاليد والعوائد المصرية التي يهواها هذا الشعب ويحبها · وهيَ في الوقت الواحد لا تؤثر في جوهر العمل الذي تنويهِ

وعندما انتهى هارون من كلامهِ اطرق موسى الى الارض مفكراً ثمّ رفع رأسه وقال — سنفكر كلانا في هذا الامر ونبحث فيهِ ملياً فلندعه الان الى الغد



٣٠

وفي اليوم التالي جاء هارون الى خباء موسى وقال لهُ — ان الشعب يتحدث كثيراً في التعاليم والوصايا التي القيتها عليه وينتظر بفروغ صبرٍ نتيجة ما · فعلى ماذا عولتَ حتى الان؟

فقال موسى — لقد عولت ان اصنع ما اشرتَ عليَّ به في الامس ·

لاننا اذا لم نجارِ هذا الشعب على بعض امياله واهوائه فلا يلبث ان يخرج عن طاعتنا ولا نعود نقدر ان نقيده بسلطةٍ ولا بشريعةٍ

فقال هارون — وليسَ هذا فقط يا اخي بل ان المشروع الذي اشرت عليك بهِ اقوى على ربط هذا الشعب بجامعة الوحدة من التعاليم التي القيتها عليه وهو ايضاً يساعدك كثيرًا على اقامة الحواجز التي تريدها بينه وبين مجاوريه من الامم ويشغله عن الالتفات الى ما عند الاجانب والتمثل بهم

فقال موسى — انني لملافاة كلّ انقسامٍ فيما بعد ساوحد هذا المعبد ولا اجعلهُ متعددًا كما كل المصريين · لكن قل لي قبل كلّ شيءٍ هل ترضى ان تكون انتَ رئيسَ الاحبار وان احصر الكهنوت في سبطنا اللاوي ؟

فقال هارون — اذا كنتَ تستطيع ان تصنع هذا بدون ان يتكدر هذا الشعب او يغتاظ فلا بأس

فقال موسى — انني اضمن هذا الامر لانني ساحرم اللاويين من كلّ نصيبٍ من الارض التي سندخلها واقيدهم بخدمة الهيكل وحراستهِ ويكون معاشهم من التقدمات المرفوعة الى الهيكل من الشعب وبهذا يرتضي الجميع على ما اظنّ !

فقال هارون — وانا اظنّ ان الشعب لا يغضبهُ هذا

العمل ما زال متمتعاً بحريتهِ التي نالها بعد الخروج والافلات من السلطة المصرية

فقال موسى — اخرج اذن وقل لهم ان يتقدسوا اليوم فانني ساصعد الى الجبل لاتمام ما عولنا عليهِ

فخرج هارون الى فسحات المحلة واخبر شيوخ الشعب ورؤساءهُ بما قالهُ موسى وامرهم بان يتقدسوا لانهُ مزمعٌ ان يصعد الى الجبل ليكفر عن الخطيئة التي ارتكبوها بنصبهم العجل الذهبي والتعبد لهُ. اماَّ موسى فبعد ان اعدَّ جميع ما يلزمهُ على الجبل في انفرادهِ خرج من خبائهِ وسار في المحلة وصعد على مشهدٍ من جماهير الشعب

وكان الفرح في المحلة شاملاً الجميع خصوصاً بما سمعوهُ من موسى بانَّ يهوَه قد اتخذهم لهُ شعباً خاصاً من بين شعوب الارض وبانه سيقاتل عنهم اعداءهم فكانوا يتجمهرون كلَّ يومٍ ويتحدثون عن التعاليم والوصايا الجديدة التي القيت عليهم منتظرين بفروغ صبر انحدار موسى من على الجبل ليعلموا النهاية

اماَّ موسى فبعد ان اقام اياماً على الجبل انحدر الى المحلة وبيده لوحان حجريان كالاولين اللذين كسرهما عندما حميَ غضبه على التمثال. فتجمهر الشعب حوله وابتدأوا يسالونه عما صنع

فاغتنم موسى فرصة الحاحهم عليه بمعرفة ما صنع ووقف بينهم

وقال – هكذا امرني الربّ القدوس يهوَه قائلاً قل لهذا الشعب اذا سلكتم بحسب نواميسي التي انا معلمكم اياها بواسطة عبدي موسى اكون لكم الهاً وتكونون لي شعباً خاصاً فابغض مبغضيكم واحبّ محبيكم وان لم تسلكوا بحسب وصاياي التي سلمتها لعبدي بل حدتم عنها واتبعتم آلهة غريبة فانني اجلب عليكم سخطي وابيدكم عن وجه الارض بالوباء والسيف . ثمّ امرني بعد هذا قائلاً قم وانحدر اليهم وقل لهم ان يصنعوا لي بيتاً فخماً فاحل بمجدي عليهِ واظهر لهم انني انا الربّ الاله ثمّ علمني كلّ ما يجب ان اصنعه من هذا القبيل كما ساظهر لكم اذا اردتم ان تسمعوا وصاياه وتعملوا ارادته

فاجاب عندئذٍ الشعب بصوتٍ واحدٍ قائلاً من نحن حتى نتمرد على الربّ القوي الذي اخرجنا من ارض مصر؟! . قل لنا ماذا تريد ان نفعل؟

فقال موسى – اذا اردتم ان تسمعوا صوت الربّ فليأتني كلٌّ منكم بما تسمح به نفسه من التحف والجلود والذهب والفضة والنحاس والحجارة الكريمة والجزع والاقمشة

فتحمس الاسرائيليون واخذوا يقدمون الى موسى كميات وافرة مما طلب . وهو كان يسلمها الى صناعٍ ماهرين لكي يصنعوها كما كان يأمرهم حتى تمّ جميع ما اراد صنعه

وفي اليوم الاول من الشهر الاول من السنة الثانية لخروجهم من مصر نُصِبَ هذا البيت الذي امر موسى بصنعهِ على جبل المناجاة وهو الاكمة المرتفعة قليلاً عن سهل الراحة الكائنة في مدخل الوادي المسمى الان وادي الدير في شرقي جبل موسى

اماً هذا البيت فقد كان عبارة عن مظلةٍ كبرى طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشر وعلوها كذلك وكان مقسوماً الى قسمين احدهما يسمى القدس وطولهُ عشرون ذراعاً وعرضهُ عشر وكان فيهِ مائدة لخبز التقدمة ومنارة من ذهبٍ ومذبح من ذهبٍ وثانيهما يسمى قدس الاقداس وطولهُ عشر اذرعٍ وعرضهُ كذلك وكان فيهِ تابوتٌ مصنوع من خشب السنط ومغشى بالذهب وفيهِ اللوحان الحجريان اللذان اتى بهما موسى من على الجبل · وكان يفصل هذين القدسين ستارٌ ثمينٌ معلقٌ على اربعة اعمدةٍ من خشب السنط مرصعة بصفائح الذهب

اماً الجهة الشرقية من هذا البيت فقد كانت مفتوحة ومعلقاً عليها في خمسة اعمدةٍ ستارٌ ثمينٌ يحجب ما في الداخل عن اعين الخارج · وكان حول البيت ايضاً سرادقٌ طوله مئة ذراعٍ وعرضه خمسون وكلّ ذلك قائم على اعمدةٍ من السنط [1]

(١) للمقابلة بين الصورة الاصلية التي نقل موسى عنها صورتهُ هذه نورد

وبعد ان تمّ نصب الخباء دعا موسى اخاه هارون وبنيهِ والبسهم ثياب الكهنوت

امّا هارون رئيس الاحبار فقد البسه فوق السراويل والقميص المصنوعين من الكتان النقي رداءً مصنوعاً من الاسمانجوني مفتوحاً

للقارىء ما رواه المؤرخ قيصر كنتو في هذا الصدد في تاريخه العام المجلد الاول وقد اعتمد في ذلك على المؤرخ بونسن المجلد الخامس من تاريخه العام القسم الخامس في اثناء كلامه عن مصر قال

« اما الهياكل المصرية فقد كانت آية في الابهة والعظمة والاطلال الباقية منها الى الان تدلنا على حقيقة هذا جلياً · كانت بمثابة الاديار الكبيرة عند المسيحيين الان اعني انها لم تكن مخصصة للعبادة فقط بل اسكن الكهنة والتدريس ايضاً وكان المعبد على العموم يقام في الوسط و يكون ممتازاً عن باقي اقسام البناء الاخرى بكبر فسحته واتساع مجاله وزيادة التانق والتفنن في التشييد والنقش ثمّ تقام في جوانبه الدهاليز والسرادقات حيث تسكن الكهنة

واما المعبد فالداخل اليه يلجه من باب كبيرٍ متسعٍ واول ما يشاهد امامه مذبح من النحاس المغشى بالذهب مخصص لايقاد البخور فقط · والى الجانب الايمن يشاهد شبه مذبح ايضاً مغطىً بقطعةِ كتانٍ نقية مزركشة بالذهب ومرصعة بالحجارة الكريمة وفوقها اناء موضوع فيه سبعة اقراص خبزٍ هيَ تقدمة للالهة وفي صدر المعبد يشاهد ايضاً ستاراً ثميناً معلقاً على اعمدةٍ مذهبة عليها النقوش والكتابة الهيروغلافية ووراء الستار يشاهد عرشاً من ابدع ما توصلت اليه ايدي المصريين في الصناعة قائمٌ عليه الاله الذي كرّس ذلك الهيكل لعبادته »

في وسطهِ كفتحة الدرع ومعلقة في اذياله جلاجل ورمانات من ذهبٍ ثمَّ منطقهُ بمنطقةٍ من نوع الرداء وطوقهُ بطوقٍ مصنوع من حجر الجزع المحاط بالذهب على هيأة الخاتم منقوش عليهِ اسماء اسباط اسرائيل ثمَّ البسهُ صدرة مربعة مَثْنِيَّة طولها شبرٌ وعرضها كذلك مرصعة بالحجارة الكريمة اربعة صفوفٍ وفي طرفيها حلقتان من الذهب الخالص معلقة بهما سلاسل من ذهبٍ ايضاً على شكل الضفر · ثمَّ وضع على رأسه اكليلاً من ذهبٍ نقيّ"[1]

اما باقي الكهنة فقد كانت ملابسهم ابسط من هذهِ

وبعد ان فرغ من هذا كرَّس البيت وقدس الكهنة وقدموا

---

(١) ولئن يكن سفر الخروج الذي ننقل عنه هذا الوصف لملابس رئيس الكهنة قد طرا عليه بعض التحسين والتغيير كباقي الاسفار الاخرى كما سنوضح هذا فان الوصف والهياة التي ذكرها الكتاب لا تزال تنمُّ بانه منقولٌ عن صورةٍ مصرية · ولزيادة التاكيد نورد هنا للقارىء ما نقلته الجامعة عن كتابٍ للمؤرخ جورج ايبرس في مقالة لها عنوانها (اثار الشرق القديمة) قالت « وكان لباس الرئيس ثوباً من التيل ناصع البياض كثير الثنيات سابلاً الى كاحل القدم عليه وشاح ذو اهداب مسترسلة يحيط بخاصرته معقود من الامام في نقطة ينسدل منها طرفاه الى ما يوازي الركبتين وتتماسك اجزاه هذا الثوب الكهنوتي بحمائل من المقصب · وكان بعنقه عقد من اللؤلؤ والاحجار الكريمة على شكل قضيبين من سعف النخل متقاطعين من اسفل وبمعصميه دملجان عريضان من الذهب الابريز

الذبائح والمحرقات وكان موسى يعلمهم ويرشدهم في كل هذا اولاً

٢١

لو سألنا العقل رأيهُ في حقيقة اسفار موسى وتعاليمهِ وعلاقة ذلك بالوحي . فهل يسلّم معنا بما ذكرهُ الكتاب يا ترى ؟

انهُ منذ مجيء هرمس واضع اديان المصريين واونس واضع اديان الاشوريين حتى قيام باكون وديكارت — اعني عندما كان العقل قاصرًا خاملاً لا يجترىء على احداث شيء — كان يصدق كل هذا ويسلّم بهِ . امّا بعد قيام هذين الفيلسوفين ووضعهما قاعدتيهما — البحث والاعتماد على التجربة والاختبار — واخراجهما العقل من سجنهِ الابدي الذي وضعتهُ فيه الفلسفة والشرائع القديمة خوفًا من موءامرته مع الحقيقة على اظهار خرافاتها واباطيلها للناس — لم يعد يصدق هذا البتة لا سيما واديان العالم على الاطلاق كموءلفات العرب في التاريخ مأخوذة عن بعضها البعض كما يثبت هذا البحث والعلم المجردان عن كلّ غايةٍ

واذا نظرنا الى الشريعة الموسوية التي هيَ موضوع هذا الموءلف الصغير رأينا آثار النقل فيها ظاهرة للعيان . ولكنه نقلٌ هذبه العقل وطبقهُ على حالة الشعوب التي وضعت لهم واحتياجات نفوسهم كما

سنوضح هذا الان

* * *

منذ وجدت العصافير حتى هذه الساعة كانت ولا تزال تبني اعشاشها وتنقف بيضها وتغذي فراخها على الطريقة التي تصنعها الان · ومنذ وجدت النحلة حتى هذه الساعة كانت ولا تزال تصنع خليتها وتجني عسلها كما نراها الآن · ومنذ وجدت الوحوش الى اليوم كانت ولا تزال تأوي الآجام والقفار وتقتنص الحيوانات الضعيفة لتتغذى بها كما تصنع الان · اما الانسان فانه وجد في حالةٍ واضحى في اخرى · وهذا الذي نشاهده اليوم هو ثمرة تربية الالوف من السنين التي مرّت عليه — كما قال غوفيه

انظر الى الهندي الذي يقطن غابات اميركا والى الاوربي فيمثل لك الاول الانسان في ادواره الاولى ادوار النشأة والارتقاء والثاني الانسان في دور الهرم يسيرُ متوكئاً على عصاته تدفعه ارياح الرذيلة طوراً فيعثر ويسقط وتحمله نسمات الفضيلة تارةً فينهض من عثرته ·

هذا هو الانسان الذي كان قبل تمدن المصريين والاشوريين — او بالحري قبل ان اجتمع باخيه للتعاون والتعاضد — لا يعبد الاَّ ما يقع تحت حواسه كما تدلنا على هذا بعض آثاره التي خلفها لنا · هذا هو الانسان الذي عبد النيل في مصر لانه مصدر حياته وحياة

الارض التي كان يطوف عليها و يسقيها بمائه فتدر عليه خيراتها · هذا هو الانسان الذي عبد التينة في الهند لانها ظللته في الصيف من الحرّ ووقته في الشتاء من المطر والصواعق · لم يصل الى ما وصل اليه الان الاّ بعد ان ارتقى عقله وارتقت حاجات نفسه

***

ولد الانسان وتربى في احضان هذه الطبيعة طفلاً صغيرًا فهي التي علمته بالمزاولة والاختبار جميع ما يعرفه الان · وكان عندما ادرك وفتح عينيه على ما حوله وابصر كلّ شيء يسير على نظامٍ وعلى ناموسٍ خاصٍ ندهش واعترته هزّة خفيفة فصاح — ما هذا ؟ !

ولقد القى هــذا السؤال على هذه الطبيعة الصامتة ليسمع له جوابًا · فلما لم يسمع ولم يرَ شيئاً حزن في نفسه واخذ يفكر مليًا فكانت نتيجة افتكاره الطويل هذه : رأى انه يشعر من نفسه بقوةٍ تدفعه وتدبره وتديره في حياته واعماله فاستنتج ان لا بدّ لما يشاهده حوله من قوةٍ حافظة ومدبرة ايضًا · فنظر فوقه وتحته عله يرى هذه القوة المدبرة الحافظة فلم يجدها لكنه اخذ يشعر بها مذ ذاك ويسمع صوتها و يرى خيالها

وفي ذات يومٍ جاع فدخل الحرش ليفتش عن طعامٍ يأكله فوجد التينة ملآنة ثمرًا فاكل منها وانتعش و بعد ان ملأ جوفه ظنّ انها القوة الحافظة المدبرة لحياته فاكرمها · ثمّ بعد مدةٍ رأى ان التينة

وغيرها من افراد المملكة النباتية تحتاج الى الماء كما يحتاج هو اليه ايضاً وغيره من افراد المملكة الحيوانية فظن ان الانهار العظمى هي مصدر الحياة والعلة المؤثرة في جميع الكائنات فاكرمها وعبدها . ثم رأى ان النور والحرارة من الضروريات التي يحتاج اليها وانهما يؤثران على مملكتي الحيوان والنبات اكثر من سواهما وانهما يصدران عن مصدرٍ سامٍ. فاكرم الكوكب العظيم — الشمس — التي هيَ مصدرهما . ثم رأى بعدئذٍ ان النار اقرب مثالٍ لهذا الكوكب لانها تصدر النور والحرارة مثله فاكرمها وعبدها .

وكانت الطبيعة في اثناء عبور الانسان هذه الادوار تطلُّ عليه من علو السلطة التي وهبها اياها المبدع الازلي وتبسم في وجهه تارةً كانها ملكةٌ تبسم في وجه احد افراد رعاياها او كانها تعلمه ما هي السلطة وكيف يجب ان يتسلط . وطوراً كانت تعبس في وجهه كانها تريد ان تقوّم بعض الشراسة التي فيه بالتهويل والتهديد او كانها تريد ان تريه كم هي ثمينة ولذيذة تلك الابتسامة وهو بين هذا وذاك يحني راسه صاغراً

ولقد عبر الانسان هذه الادوار الاولى من حياته مفتشاً عن ضالته — عن القوة المؤثرة في الكائنات — وهو وحده منفرد في الحرش ليسَ الى جانبه الاّ امرأته واولاده وخرافه فقط . لكنه عندما التقى باخيه واحبَّ ان يجاوره ليتعاضدا على شقاء هذه الحياة

واتعابها رأى ان من الواجب ان يزيدا على شعورهما بالقوة المؤثرة التي كانا كلاهما يشعران بها شيئاً من الشروط التي رأيا من الواجب ان يشعرا بها دائماً ايضاً والتي تحفظ لكلٍ حقوقه لدى صاحبه . وهكذا صنعا هذه المعاهدة وقدساها

ثم لما تكاثر النسل البشري وعمرت المدن والقرى وظهرت السلطة واصبح هذا المجموع عبارة عن عراكٍ عنيفٍ وعن ضعيف يسحق وقوي يستبد رأى بعض الذين لم يستطع الوحش الذي في الانسان ان يتغلبَ على الفضائل التي في نفوسهم ان الهيأة قد اصبحت في حاجةٍ الى الشرائع

واذ كان الانسان عندئذٍ لا يزال اقرب الى الهمجية منه الى الحالة التي وصل اليها الان — لانَّ الفضيلة كانت لا تزال نبتة غضة ولم تثمر بعد — كان واضع الشريعة يومئذٍ يحتاج الى نسبة شريعته الى مصدرٍ سامٍ لارهاب الانسان ولقتل الوحش الذي في نفسه بالتهويل والتهديد . واذ ليس عند الانسان اسمى من الالوهية فلذلك ظهر هرمس ووانس عند وضع اقدم الشرائع المصرية والاشورية مع انهما في الحقيقة اسمان بلا مسمى اتخذهما الشارع سياجاً للفضائل التي اودعها شرائعه واراد بثها في معاصريه

وعندما وصل الانسان الى هذا الحدّ واصبحت ديانته عبارة عن ارتباطه بالحياة السرمدية المحيطة به وعن وجوب ارتباطه مع اخيه

بالحب كان عمله قد ارتقى ولم تعد التغييرات التي حدثت في اديانه وشرائعه بعدئذٍ الاّ نتيجة احتياجات نفسه ونتيجة الطوارىء التي كانت تطرأ عليه وتنقله من حالةٍ الى اخرى

اما هذه الطوارىء التي كان يعقبها غالباً الانقلاب الديني فقد كانت على الغالب لا بل دائماً نتيجة الضغط وفساد الشرائع الذي لم يعد يحتمل معه الانسان سلطة القابضين عليها فكان اما ان يقوم عليهم ويحاربهم بالفضائل التي تحتويها واما ان يأخذ هـذا السلاح ذاته ويستقل مع بعض اخوته عن تلك السلطة المستبدة ثم يضيفوا اليه الاشياء التي كانت تقتضيها منهم حالتهم الجديدة

واذا نظرنا الى جميع اديان العالم على الاطلاق رأينا ان هذا الدور قد مرَّ على جميعها وان كلّ الانقلابات التي حدثت والشرائع التي ظهرت كان لاحتياجات النفس ولاضطرار الحالة التي كان يوجد فيها الانسان التأثير الاعظم واليد الطولى في تغييرها وتكييفها وليس للآلهة ولا للوحي ولا للتنزيل من يدٍ فيها كما تقول هذه الشرائع ذاتها

نعم — ان الانسان مهما ارتقى عقله او مهما انحط لن يستطيع ولا يستطيع انكار وجود مدبرٍ لهذا الكون وحافظٍ لهذه النواميس. لكن هذا المدبر والحافظ الذي ندعوه — الله — لا يستطيع احدٌ ان يشاهده كما شاهده موسى على الجبال ولا ان يسمع صوته بين الرعود واصوات

الابواق . بل جلّ ما يستطيع الانسان ان يعرف عنه هو انه يشاهد مثالاً لحكمته في العقل السليم ومثالاً لعدله وسلطته في الضمير الحيّ فقط . ولذلك فالشريعة الموسوية لم يكن من يدٍ للوحي فيها البتة بل المؤثر الوحيد فيها هو احتياجات نفوس الاسرائيليين والحالة التي وجدوا فيها بعد خروجهم من مصر كما رأى القارئ فيما مرَّ من سياق هذه الرواية

اما كيف ربط موسى الاسرائيليين بالحياة السرمدية فهذا الامر — اي الارتباط بالحياة السرمدية — قد اتضح للقارىء في بدء هذا الفصل انهُ قديمٌ جدًّا ادركه الانسان منذ ابتدأ ان يدرك وجوده لنفسه عندما كان يجهل تمام الجهل اسرار الطبيعة ونواميسها حتى ابسطها . لكن هذا الارتباط مع قدمه قد بقي ضعيفاً ومنحطاً حتى رقاه الاشوريون والكلدان والمصريون في الشرق الادنى والصينيون والهنود في الشرق الاقصى اذ قرنوه بالشرائع التي جعلوا مصدرها الالوهية ووضعوها في الدرجة الثانية منه . فلما ارتحل تارح واولاده من اور الكلدان الى حاران كانت علاقتهم بالحياة السرمدية كعلاقات غيرهم من الكلدانيين بها فكانوا يعتبرون القوة المؤثرة والحافظة للكائنات عبارة عن سلطةٍ مطلقة سامية لها متسلطٌ اعظم ومتسلطون اصغر واعوانٌ ونوابٌ وخدمٌ وحشم او بالحري كانوا يعتبرون ان لها

صورة الهيأة الحاكمة تماماً الامر الذي كان يدعوهم ليس الى تعدد المعبودات فقط بل الى المنافسة في سمو هذا المعبود على ذاك واعظمية ذلك على هذا

لكن تارح لم ينقل معه هذا فقط الى حاران ارض مهجره بل نقل معه الاصنام التي كان الاقدمون يتخذونها صوراً لآلهتهم فكان يحملها من مكانٍ الى آخر في حله وترحاله معانياً المشقة الكبرى في ذلك حتى مات وارتحل ابنه ابرهيم بعده الى سوريا

اما ابرهيم فلاستثقاله عمل ابيه والمشقة التي كان يلاقيها في نقل اصنامه ترك تلك المنحوتات في حاران وترك كل عبادة الآلهة الصغرى وابقى على عبادة ايلو[1] اله الآلهة واكبرهم مدفوعاً الى ذلك بحالته البدوية التي وجد فيها. وعلم هذا لاولاده واتباعه الذين اتبعوا طريقته وحفظوا عنه جميع التقاليد والقصص التي رواها موسى في سفر التكوين حتى الاصحاح الثاني عشر[2]. وهكذا كان ثقل الاصنام داعياً الى

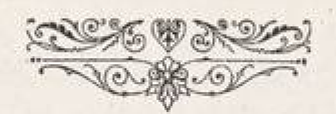
(١) معنى الكلمة العلي وفي العبرانية يهوه

(٢) ان الاحد عشر فصلاً التي رواها موسى في اول سفر التكوين « لقد تلقاها عن تذكراتٍ قديمة وتقليداتٍ سبقت ايامه وقد حفظتها ذرية عابر واتى بها ابرهيم من بلاد الكلدان الى فلسطين وتطرقت باسحق ويعقوب وذريته الى موسى وعلى ذلك ادلة (اولها) ان النظام الجغرافي للشعوب التي ذكرها موسى مركزه بلاد الكلدان لا مصر ولا فلسطين . (ثانياً) ان بعض المواطن التي

طرحها وطرح هذه داعياً الى تناسي وترك عبادة الآلهة العديدة وهذا ايضاً الى البقاء على عبادة اله واحد فقط والاهتداء الى سرّ التوحيد الامر الذي حفظه الاسرائيليون ولم ينسوه البتة وراعاه موسى وحرض عليه في الوصايا العشر لا سيما وقد رأى انه الحقيقة التي يكتمها روساء كهنة المصريين وحكمائهم (راجع الفصل السادس من هذه الرواية الصفحة ٣٣ و ٣٤)

فمما تقدم يتضح للقارىء ان ربط الاسرائيليين بالحياة السرمدية لم يكن لهُ ادنى علاقة بالوحي ولا بالتنزيل كما ان جميع ما كتبه موسى كان ابن الحاجة واكثره منقول عن الشرائع المصرية والتقليدات التي كان يحفظها الاسرائيليون وراعاها تبعاً لهواهم واذواقهم

عينها لبعض الشعوب كان قد طرأ تبديل على سكانها يوم كتب التوراة كما تبين من الآثار المصرية وغيرها . (ثالثاً) انه وصف بعض المدن بانها كانت عامرة زاهرة بمجدها مع انها كانت في ايامه خربة وساقطة عن مجدها ولا وسيلة لهُ لعرفان ما كانت عليه من قبل الا تذكرات او تقليدات سابقة (تاريخ سوريا المجلد الاول للعلامة الدبس صفحة ٩٦ و ٩٧)



٢٢

وبعد ان اقام الاسرائيليون نحو سنةٍ من الزمن في برية سيناء امرهم موسى ان يستعدوا للرحيل فقلعوا خيامهم وحملوا اثاثهم وحملوا معهم خيمة الاجتماع وجميع آنية القدس ورحلوا الى برية فاران ٠ وقبل وصولهم الى هذه البرية ارتاحوا في قبور الشهوة المكان المسمى الان رويس الاوبيرج وهو واقع على بعد ٤٢ كيلومترًا عن جبل موسى في طريق خليج عقبة ثم ارتحلوا منـه الى حصيروت المكان المسمى الان عين حصارة على مسافة اربعة وعشرين كيلومترًا من رويس الاوبيرج ومن هذا المكان ارتحلوا الى برية فاران الفسيحة الانحاء

وعند بلوغ موسى هذه البرية دعا اليه شيوخ الشعب وقال لهم: اننا قد صرنا على مقربةٍ من ارض كنعان الارض التي وعد الله اباءنا ان يعطيها ميراثًا لنا نحن نسلهم فلننتخب منا من يرود هذه الارض قبل ان نهاجمها

وقد كانت الجاسوسية مشهورة في تلك الايام وعليها اعتماد جميع القبائل والامم في معرفة احوال بعضهم البعض حتى انهم كانوا يعولون على الملاحظات والاراء التي كان يبديها الجاسوس ٠ ولذلك كانوا يستخدمون لهذه المهمة من اشتهر بحسن النظر والاطلاع

ولقد انتخب الاسرائيليون اثني عشر رجلاً منهم واحداً من كل سبطٍ من اسباطهم وقدموهم الى موسى فامرهم بدخول البلاد التي امامهم في عبر الاردن وان يتجسسوها ويفحصوا جيداً حالة سكانها أأقوياء هم ام ضعفاء اقليلون ام كثيرون اخيامٌ ومضارب مساكنهم ام حصون وبيوت مبنية بالحجر . فذهب هولاء الرجال وتجولوا في ارض كنعان اربعين يوماً وعادوا الى موسى في قادش ومعهم شيء من ثمار الارض . لكنهم عندما سئلوا عما رأوا اختلفوا في هل يستطيعون التغلب على القوم الذين تجسسوا ارضهم ام لا فمنهم اثنان قالا بمقدرتهم على ذلك والباقون وهم عشرة قالوا بالعكس اي بعدم استعدادهم لهذا الامر

وعندما سمع الشعب كلام هولاء خافوا وايقنوا بعدم مقدرتهم وتظاهروا امام موسى وباقي الروساء بعدم رضاهم بالعبور الى ما وراء الاردن . فالتزم موسى ان يذعن لارادتهم واقام في البرية يعلمهم قوانين الشريعة التي وضعها ويحثهم على الخضوع والامتثال لاوامرها مدة ثماني وثلاثين سنة

وفي نهاية هذه المدة مات اخوه هارون فحملوه ودفنوه في جبل هور في مغارةٍ هناك وقلد ابنه اليعازر رئاسة الكهنوت مكان ابيه . ثم بعد ذلك شعر موسى بدنو اجله وكان قد بلغ من العمر مئة وعشرين سنة فامر باحصاء الشعب فاحصي فكان عدده من ابن عشرين فما فوق

ست مئة الف ومئة وثلاثين رجلاً فدعا اليه خادمه الامين يشوع وقلده قيادة الشعب وامره ان يحتاز بعد موته الارض التي وراء الاردن ويستحوذ عليها وحث الاسرائيليين على ذلك كثيراً وشجعهم

ثم صعد الى جبل نبو الى قمته المدعوة الان رأس السباغة وتطلع من ذلك العلو الى الارض التي ودّ كثيراً ان يدخل الاسرائيليين بها ويؤسس لهم المملكة التي كان يريدها · وهناك بعد صعوده نفت قواه وفاجأه الموت فحمله رجاله الى الوادي الذي في ارض واب تجاه المكان المعروف الان بالمريحة ودفنوه هناك فحزن عليه الاسرائيليون كثيراً وصنعوا له مناحة مدة ثلاثين يوماً

***

لو ان الموت هو سقوط هذا الهيكل الترابي الذي تقيم فيه النفس فما كان من لذةٍ حقيقية في هذه الحياة ولا من مزية للانسان على البهيمة لكنّ الحياة هي حياة النفس بالفضائل والموت الحقيقي هو موتها بالرذائل · فكم اناسٍ تراهم احياء وهم موتى في الحقيقة لان الرذيلة خنقت نفوسهم واناسٍ ماتوا منذ ازمنة ولا يزالون احياء بالفضائل التي صنعوها

هذا ابلغ ما تستطيع ان ترثي به موسى واضع اقدم شريعة دينية مدنية لا تزال حيّة الى اليوم · هذا ابلغ ما نستطيع ان نرثي به الذي وضع الصلة بين الشرائع القديمة والحديثة

